مريم أيّتها العذراء

تأليف

هدى علي محفوظ

إلـــــــى.....

التي أمسكَتْ ألسنةَ النارِ بيدين قويتين
و غذَّتني قوةً وعزيمةً
فاستلهمْتُ منها معنى الاستمرار

أمـــي

إلـــــــــى...

مَنْ مدَّ يدَ العونِ لي ولم يتوانَ في شَحْذِ همَّتي البتة

د. محمد فراس سعودي

أهدي قصتي ....

فكـــانت مريـــم...

وعندما حضَرتْ مريم...

داعَبَتْها بصمتٍ العيون...

وتوالتْ على الكونِ الضَحِكَات...

تلك التي عند إشراقةِ النورِ في وجهِها...

ضَحِكَتْ دمشق بأحيائِها العريقة...

وغنَّتْ لها أغنية الحياة...

وغرَّدتْ مع حُسنِها الطيور...

وهتفتْ لها النسمات...

يا مرحباً بكِ يا مريم...

أهلاً بعطاء السماء...

سكن ليل تموز الحار وتلألأت النجوم في السماء التي نشر القمرُ نورَه في كبدها، خفتت الأنوار في كل المنازل المتواجدة في حي الناصرية الدمشقيّ، وتراقصت أوراق الأشجار مع كل نسمةٍ طارئة... أما عرائش الياسمين فتتدلى بعطرها الفوّاح المنتشر في الأرجاء.

في تلك الساعة المليئة بسحر هدوء الليل و نسائمه العليلة ذُعِرت نساء المنزل وارتجفت فرائص الأطفال إذ دوى صوت امرأةٍ انبعث من أحد المنازل تستغيث مستجديةً المساعدة في وضع مولودها الأول، فقد حانت لحظة الولادة المنتظرة منذ تسعة أشهر، هرع الزوج الحنون لإحضار ما تسمى (الداية) التي ستسهم في ولادة روح جديدة لتشق حياتها في هذه الدنيا، وفاطمة تتلوى من ألمها تصرخ وتدعو الله أن يريحها...

بدأ الانبعاث من رحم الألم والصراخ، وعكفت الداية غرقى منهمكة تسحب الحياة من بين أسوار الموت... أما الزوج العطوف لم يفارق الدعاء ثغره البتة داعياً لها بالخلاص، وبعد دقائق ليست بقليلة صدح في الأفق صراخ ملاك أبيض هزّ كيان والدها وفاضت عيني والدتها لؤلؤاً منثوراً على خديها.....

فكـــــانت مـــــــريـــــــم

دخل حسن غرفة زوجته فاطمة وبقلبٍ يرتجف ودموعٍ تستدر حمل مريم وقال بصوتٍ مرتعش: حماك الله ورعاك يا ملاكي الطاهر، وطبع على جبينها قبلة حبٍّ أبويّ، وبدأ يؤذن في أذنها.

أشرقت مريم وقد ولد قبلها حاضرها ومستقبلها، حاضر يحمل في طياته المجهول ومستقبل يحمل من المفاجآت مالا يخطر ببال.

لم تُحمل مريم على الأكف على الإطلاق إنما كان مركزها الوحيد على الرأس والأكتاف فقد كانت الطفلة المدللة التي تكحلت بوجودها عيني والديها فهي الابنة البكر وما أدراك ما الابنة البكر؟!

نشأت مريم في بيتٍ دمشقيٍّ عريق في حي الناصرية القريب من منطقة الشاغور، هذا الحي الذي تقرأ على جدرانه عراقة دمشق و تشعر في نسائمه عذوبة دمشق وترى في ياسمينه قصة ألف عاشق لدمشق، فتتذكر قول الشاعر نزار قباني عن دمشق حين قال:

قمرٌ دمشقيٌّ يسافر في دمي
وبلابل .. وسنابل .. وقباب
الفل يبدأ من دمشق بياضُه
وبعطرها تتطيب الأطياب
والماء يبدأ من دمشق .. فحيثما
أسندت رأسك جدول ينساب
والشعر عصفور يمد جناحه
فوق الشام .. وشاعر جوّاب

عاشت في ذلك المنزل كزهرةٍ تُسقى أدباً وأخلاقاً، وكطائرٍ يغرّد حباً وإخلاصاً، تشربت حب دمشق وعشقت تراب دمشق.

مَنْ ينظر إلى تقسيمات وجهها الملائكي يخيّل أنّه ينظر إلى قديسة متعبدة في محرابها لكثرة نورها الوهّاج الذي يسطع على وجه من يحملها أو يقترب منها، قال عنها جدها ذات يوم لأبيها: يا حسن اهتم بمريم وإياك أن تحزنها يوماً، فلها من الكرامة عند الله مالا يعلمه أحد، ياحسن زوّجها لمن يستحقها ويحفظ كرامتها ولا تتخلى عنها.

كلام جدها يوحي بأنّها إنسانة مكرّمة عند الله، ولِمَ الاستغراب؟ وهي تحمل اسم السيدة العذراء عليها السلام! فكما يقال لكل امرئٍ من اسمه نصيب.

مرّت الأيام ومرت مراحل الطفولة بهدوء وكبرت مريم كما تكبر سنابل القمح الذهبية بقدها المياس المتمايل وشعرها الأسود الطويل.

شبت وأزهرت كقمرٍ يشعشع نوره آفاق الروح وسراج ينير حلكة الظلام، ضمت بين أضلعها قلباً يحمل من الصفاء أروعه ومن النقاء أبهاه، وحملت روحاً تعزف سيمفونية المرح وتجدد الأمل برؤيا مستقبلية مليئة تفاؤلاً وديمومة... أما أحلامها وعواطفها فهما مفتاح روح الحياة التي من خلالهما ستجعل إشراقة الشمس تملأ فضاء الحياة ونور القمر يضيء حلكة الفكر...

مريـــم والصـــراع . . .

تلك التي ما عَرفتْ عنوانَ القهر . . .

ولا استباحَتْ أن تمسَّها أصابعُ الغدر . . .

عذراءُ هي . . .

عذراءُ بأفكارِها التي ما جنحَتْ عن الخير . . .

ولا أقدمَتْ في عقودِها على الضير . . .

منفتحةٌ أفكارُها . . . كجناحَي طير . . .

تلامسُ أحلامَها بخيالٍ جامحٍ . . .

ترجو النجاحَ كأساسٍ للفضيلة . . .

تسعى بخُطاها بكبرياءٍ وعزيمة . . .

فالخيرُ من أسمى معانيها . . .

والحياةُ بمنظورِها جميلةٌ عظيمة . . .

لكنها وقعتْ أسيرةً للتقاليد . . .

مسجونةً في زيفٍ من مبادئَ سخيفة . . .

فاستسلمتْ للبرِ والطاعة . . .

وجلست تحيكُ من أثوابِها حلماً جديداً . . .

جلست تنسجُ من ألوانِ الربيع . . .

أحلاماً وردية . . .

في منطقة الدقاقين الدمشقي وتحديداً في مدرسة "أمامة بنت الحارث" تلقّت مريم دراستها وكانت من المتفوّقات على زميلاتها، كان جلّ اهتمامها أن تتابع مراحل الدراسة وتصبح معلّمة في إحدى المدارس لتنشر أفكارها التي تكبر عمرها بمراحل وتنيرهم بنور العلم.

قضت أجمل أيام عمرها مع صديقاتها في تلك المدرسة فكلّ حجر من حجار جدرانها يحمل ألف حكاية وكل نسمة من نسائمها تحمل ألف قصيدة، وأما شجرة النارنج المزروعة في أرض المدرسة تحمل في طياتها أجمل الذكريات و أروع الأقاصيص، ذكريات لا تُنسى وأيام مرّت كلمح البصر.

أنهت المرحلة الابتدائية بامتياز وتهيّأت لمتابعة المرحلة الإعدادية، لكن فرحتها بالنجاح لم تكتمل فقد صدر فرمان والدها حيث قال لها: "إنّ الدراسة يا ابنتي لم تُخلَق للبنات فالعلم له أصحابه ونحن كما تعلمين لا نستطيع أن نجعلك محط أنظار الناس تخرجين وتعودين وتتمشين بينهم فيستمتعون بالنظر إليك كلما ذهبت وكلما رجعت، أتمنى أن تفهمي ما قصدته، ورأيي أن تقنعي بهذه الشهادة وتتهيّأين لتصبحي ربة منزل يُحكى عنك كل خير".

في هذه اللحظة أحست مريم بظلامٍ قد خيّم المكان وأحاطها من كل جانب، فلم تستطع التركيز وكأنّ أحلام اليقظة أصبحت مجرّد أشباحٍ تسكن بين جدران أفكارها، انتابها نوع من السكون المخيف الذي لامس خيالها الثائر كما يلامس الضباب أطراف البحيرة الهادئة، بلحظة

تلاشت الأفكار والأحلام فلم يعد هناك ما تفكر به بشكلٍ جديّ سوى أنّ أحلامها تبددت ومستقبلها حزم أمتعته ورحل.

عادت مريم إلى واقعها ورضخت للأمر فهي لن تستطيع إغضاب والدها ورفض طلبه، فأخذت تقول في نفسها: "إنّ هذا الطلب جاء من باب الخوف عليّ فلولا حبه لي لَمَا كبّلني بهذه الأغلال".

ذهبت إليه وقبّلت يده بحنو وقالت له: " أمرك مطاع يا والدي" ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه حسن وربت على كتفها قائلاً: " بارك الله بك من ابنة بارة بوالديها".

قضت أيامها في المنزل تتعلم طهو الطعام وتنظيف الأثاث وكل ما يتعلق بأمور البيت، في نفس المسكن كانت تقطن معهم عمتها وبناتها الثلاث اللواتي كن شديدات الغيرة منها، فقد كانت الأجمل والأرشق والأكثر دلالاً عند والديها، إلا أنّها لم تكن تعرهن أيّ اهتمام سوى أنّهن بنات عمتها فتحبهن وتكنّ لهنّ كل احترام وتقدير.

طموح مريم لم يستطع أن يتوقف عند هذا الحد لم يشأ أن يندثر ويهوي إلى الأسفل أراد أن يخرج إلى النور، نور المعرفة لكن ليس بين كتب وكراريس المدارس، إنّما نور من نوع آخر، فقد أرادت أن تسير وفق لحظات الزمن المتسارع وتتعلم شيئاً آخر يفيدها ويفيد عائلتها، فاقترحت على والدها أن تتعلّم فنّ الحياكة... فكّر في الأمر ولم يشأ أن يحزنها مجدداً فهزّ رأسه طالباً منها الاستمهال للتفكير...

وأخذ الصراع يحتدم في رأسه فالإرث الاجتماعي يقول: أتقذف بعصفورتك بين أنياب الثعالب الذين يملؤون الطرقات والأرصفة؟

وهل تؤمن عليها من غدر غادر أو لسانٍ جامحٍ؟

وكيف إذا قال الناس: ابنة الحسن يراها جميع رجال الحي تمشي أمامهم ولا تقرّ في بيتها؟

ومتى كانت الدراسة للبنات؟

وإذا تفرّغت الإناث للدراسة فمن سيعتني بالبيوت والأطفال؟

ثم يتدفق القلب بحنينٍ دافئ ومنطقٍ راقٍ فيقول: أتكسر جناحها؟ أتجرح فؤادها؟ أتُدمِع عينيها؟ أتقتل التغريد في حنجرتها؟ أتكون سبباً في نزيف حبات اللؤلؤ على وجنتيها؟ ومتى كان العلم معصيةً؟ أليس هو قمة الفضيلة؟

وسرعان ما يرتج الصدر بصراخٍ ذي صدى يصدر من كهفٍ مظلمٍ قائلاً:

ولكن شرفنا أغلى، المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها، ثم إلى قبرها. أتريد أن تُهين شيبتنا؟

وبدأ يزداد توتراً فغلبت النسمات الريح وداعب شوقه لابتسامة ثغرها أوتار الحب والعاطفة في قلبه، فقرر صارماً: لن أكسر جناح صغيرتي، دعها ترفرف لأتنسّم الحياة من هدير نسمات جناحيها.

غمرت الفرحة قلبها الصغير وعلت الضحكة وجهها البريء وعينيها الحالمتين، وأصبحت تتراكض في ديار المنزل و ترفرف كفراشةٍ متموجة الألوان... فقد اخضرت حقولها المجدبة وتلونت حدائقها النضرة فستنتقل من فتاةٍ مستهلكة تعيش روتيناً خانقاً إلى أخرى منتجة تعيش بهجةً عارمة...

بدأ نهار اليوم التالي وهو اليوم الأول للذهاب فيه إلى منزل (نهاد) السيدة التي ستعلّم مريم الحياكة، لم تأت وحدها بل كانت والدتها برفقتها... دقت باب المنزل فتحت لها امرأة في عقدها الرابع شقراء بيضاء، ميساء، هيفاء، نظرت إليهما بعينيها الخضراوين كدرتين لامعتين، ورسمت ابتسامة خجولة من ثغرها الوردي رحبت بهما وطلبت منهما الدخول بكل ترحاب.

قدمت أم مريم ابنتها لهذه الفاتنة نهاد وطلبت منها أن تعلمها فن الحياكة إلى أن تجيدها تماماً لتصبح بارعة في المستقبل، هزت نهاد رأسها بالموافقة ونظرت إلى مريم وقالت لها: أهلاً بك في منزلنا المتواضع وسأكون لك بمثابة والدتك، والبنات هنا بمثابة أخوتك إن شاءالله.

ابتسمت مريم ابتسامتها الخجولة ووجهها تشوبه حمرة وقطرات من عرق الخجل.

مرت الأيام الطوال التي جعلت مريم تثابر في تعلمها لتصل إلى ماتبتغيه وقضت أجمل أيام عمرها مع صديقاتها عند السيدة نهاد، ووضعت جل اهتمامها لتتقن هذه المهنة، ابتدأت بحياكة الملابس لوالدتها ثم لبنات عمتها ثم توسع أفقها وكوّنت لنفسها زبائن من مناطق شتى فأصبحت أهم حائكة في مدينة دمشق.

هذا النجاح الذي وصلت إليه مريم جعل أعز أقربائها ينظرن إليها نظرةً يضمحل لسوئها نور الشمس فكانت الغيرة تنهش أكبادهن كما أكلت دابة الأرض منسأة سيدنا سليمان عليه السلام، حتى أنّ الأمر وصل بهن إلى أنّ كل زبونة تقصد مريم للحياكة كنّ يلتقطنها ويأخذنها لأنفسهن... وهنا الأنانية لعبت دورها تماماً عند بنات عمتها اللواتي يظهرن لها الوجه الحسن والنية الحسنة بينما في الحقيقة يخفين ما هو أدهى وأمرّ، لكن الله أحب تلك الفتاة الطاهرة المطهرة ونزّهها عنهن وجعل لها حياتها الخاصة والمستقلة التي استطاعت من خلالها أن تكوّن أسرة عظيمة وتبتعد عن خبثهن، فقد طلب يدها ابن عمتها مراد الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً والذي كان يعمل حلاقاً للرجال...

مريم الطهر والنقاء...

كلما تكبرُ السنون في شبابِها ...
تتفتحُ أزهارٌ من وجنتيها وتتدفقُ من جسدِها الينابيع...
مريمُ النقاء... آلهة شعرٍ لكلِّ الدواوين...
فاتنة بحُسنِها كنايٍ رقيق...
حزينٌ بأوتارِه لكنَّك تنحني عندَ سماعِه وتلين...
أقدارُها عصيّة... تعانِدُها كلَّ حينٍ وحين...
تقودُها باتجاهٍ معاكسٍ لما تريد...
فأتى مراد حاملاً في قلبِه حباً كبيراً...
محكوماً بأعرافه... متمسكاً بإذعانِه كالأسير...
ومريمُ النقاء ما تجرأ أحدٌ بالعبَث بكرامتِها...
كانت تبتسمُ دوماً رغم ما تحيطهَا من ضجيج...
كانت شاكرةً لمولاها بعاطفةِ إيمانِها العميق...

مراد جعل من مهنته جسراً لتحقيق أمله بالاقتران مع شريكة عمره المستقبلية التي كانت تعيش مخيّلته في عالم الذر قبل أن نُخلَق، فأخذ يتفانى لجمع مهرها ومستلزمات الزواج بها.

منذ أن فتحت مريم عينيها للحياة وهو يحنو عليها ويهتم بها ويرقبها وهي تنمو كزهرةٍ جوريةٍ بيضاء تداعبها نسائم الحب، متجذّرة في أرضٍ طيبةٍ، نابعة من دفء العواطف المتموجة في الأعماق، كلما يأتي لزيارة حسن والد مريم يلمحها عن بعد بقدها الغض وشعرها الأسود الطويل، فيرى فيها انتعاش الحياة وتحقق الأمنيات، ويشعر بأنّ ما تخفيه من غموض في نظرات عينيها يجعله يحرك سواكن أعماقه، لكن كل هذا لا يجدي شيئاً ولا يجعلنا نحقق أي شيء سوى أننا نعيش حلماً يكبر بداخلنا رويداً رويداً.

ولكي يتحقق هذا الحلم لا بد من اتخاذ خطوة تجعل من اللاشيء حقيقة ومن الحلم واقع، فما كان منه أن تجرّأ وطلبها من أبيها الذي يرى في مريم إلهاً من آلهة الجمال والطهر... فقد كان يخشى عليها من نوائب الدهر ومن غدر البشر.

فكر في طلب مراد واستشار الأهل... فالكل يشهد بأخلاقه وكرمه وإخلاصه، وتمّ الزواج في يومٍ بهيج ...

ذلك اليوم الذي سيشهد ولادة حياة جديدة وبناء بيت جديد قد يملأه – ظناً منه– السعادة والحب.

جلس المدعوون في أماكنهم و أشرقت مريم بفستانها الأبيض وشعرها الحريري الفاتن المتدلي على كتفيها الغضين، والنسوة تطلقن الزغاريد

والمواويل لهذه المناسبة السعيدة... مريم تنظر إلى السماء نظرة الراهب الذي يصلي في صومعته مستنجداً بالله لينجو من مصيبةٍ قد ألمّت به فهي لم تكن ترغب في الزواج، فقد كان جل اهتمامها رغم صغر سنها أن تبقى عذراء بتول لا يمسّها بشرٌ قط، وأن تجعل حياتها مهداً لأعمال الخير والتقرّب لله، لكن قدّر الله وما شاء فعل.

جاء العريس وارتفعت الزغاريد ومشى بين المدعوين يرافقه والده وأحلامه المستقبلية تفتح أبواب الحب والسكينة والهدوء وتبعد أغشية الخوف... وصل إلى أميرته، وقف قبالتها، أزال الغيوم والهالات فانكشف له القمر، وإذا به أمام لوحةٍ خطها الرب بريشته تتقاطر منها حمرة خجل العذارى، فركع على قدم واحدة وأمسك بيدها الصغيرة وقلبه ينبض ويهيج كما تهيج أمواج البحر بتصاعد وانخفاض وقبّل يدها البيضاء الغضة...

وعيناه تجمدتا لا تكادان تستطيعان رد الرمش إلى طرفه، قائلاً لها: أتسمحين لي بالصلاة في محراب عينيك؟ قال هذه الكلمات البسيطة وشعر بنفسه أنه يطير بجناحين كبيرين عالياً عالياً وفي صدره قلب يلتهب بنيران الحب والشوق ذلك الحب العظيم الذي شمل حياته كلها، ذلك الحب الذي قد تراه يصدر أغنيةً يسمعها كل من عرف الهوى وكل من عرف الليل وسكن بين نجومه وكواكبه، ذلك الحب هو عشق مريم لا قبل ولا بعد.

تمّ الزواج و بدأت مريم حياتها في قفص الزوجية، دخلت منزلها الجديد المكون من غرفةٍ واسعة قليلاً وديار صغيرة ومنافع، نظرت إليه

باستغراب وفي قلبها شيء يحدثها، فقد تمعنت بجدرانه المطلية بلونها الأبيض لكن هذا اللون ليس ناصعاً كما يجب، نظرت إلى نافذة الغرفة فهي كبيرة بعض الشيء لكنّها قد لا تكون بمثابة روحها التي تتدفق حريةً وانفتاحاً، لحظت السرير المليء بالأغطية البيضاء الجميلة لكنّه قد لا يكون مريحاً كسريرها التي اعتادت أن تنام عليه.

أدارت ناظرَيها لمساحة الغرفة فهي ليست بكبر حلمها التي أرادت أن تعيش لأجله، لكن هذا ما يريده الزمن بها، قضت أيامها الأولى كعروسٍ مدللةٍ بعض الشيء لكن أيام الدلال لم تدم طويلاً حتى اجتاح الشقاء أيام عمرها الصغير.

ليس هذا نغم مريم وليست هذه سيمفونيتها، لقد غرّبت بها الأقدار بعيداً كان طيباً حقاً ولكنها أرادت أن يتناغم معها بمقطوعة رومانسية ساحرة، كانت حرير وكان صاحبنا من الكتان، كانت رقيقةً كالناي وكان قرعه مدوياً كالطبل... فيعسر أن يشترك الناي والطبل قي إيقاع واحد، شرقياً عربياً متزمتاً متصلباً نقياً طاهراً جلْداً صارماً كل هذا وأكثر.

التقاليد تحكمه والأعراف تأسره والإذعان للأم والأخوات يسجنه، لقد حلمت أن تتراقص روحها مع روحٍ خفيفة الإيقاع، فاتنة الحركات سريعة الذوبان، شديدة الجاذبية، شاعرية الأنفاس، حارة الكلمات، دافئة الحروف، ولكن لم يشأ القدر أن يجمعها بمن يسبح بها في غمرات الغيم و السماء، مازالت متلألئة تتقاطر منها أنوثتها، تعشق الأرض ملامسة قدميها حافيتين، يغار حرير السرير من نعومة راحتيها...

صمتها سحر، كلامها إثارة، وكأنّ الأنوثة تتلمذت عند ركبتيها.
لم تهنأ في حياتها كثيراً فمنذ أن دخل العصفور قفصه الذهبي وهو يرفرف بجناحيه بغية الرجوع إلى عشه القديم.
بدأت ذيول الشهب تُبدي الوجه اللامع في حياة مراد وتَعكس ظلمة أفوله في حياة مريم، وبدأت مخالب الترفّع والتدخّل تنشب أظفارها في جسدها الغض حتى غدا محطاً لكل من أراد نهش قطعة من لحمها. وعاشت دوامتها بين إرضاء الزوج والابتعاد عن المشاكل، وبين النأي بالنفس والحفاظ على الكرامة، حتى جاء الولد الأول الذي ملأ حياتهما بهجةً عارمة فكانت سلمى الطفلة المدللة، التي حوّلت حياة مريم العابسة إلى ابتسامة دائمة مرتسمةً على شفتيها الحارتين.
وبدأت تتسابق الأيام والطفلة تتقلب في أحشاء أمها، فتارةً تصعد وتارةً تنزل وتارةً تتجه إلى اليمين وتارةً إلى اليسار، وكأنها ترقص، فسبحان الله كأنّ عذوبة طبعها بدت في حركات قدميها ويديها داخل رحم أمّها.
كانت مريم تضع يدها على بطنها وتكلّمها، عند ذلك تهدأ الطفلة وكأنّها تصغي لصوت أمّها وتحاول فهم ما تقول، لم يستوعب دماغها الصغير معاني كلمات أمها ولكنّها كانت تتشرّب سيلان عاطفةٍ تتدفق كشلّال في صوت مريم فغذاء العاطفة أهم من غذاء الجسد، وكلّما اقترب موعد ولادتها تراكضت دقات قلبها مهرولةً فاتحةً ذراعيها متعطشةً لحلاوة اللقاء ودفء العناق.

ولدت سلمى كأجمل حوريةٍ هبطت على الأرض من الفردوس الأعلى، بكت كحال جميع أطفال العالم ولكن بكاؤها يختلف، فكان كنايٍ يحمله راعٍ حزينٍ يجلس تحت شجرة تين في قمة جبل الزيتون.

فكلّ نغمةٍ من صوتها تخترق صدرك لتبكي عيون قلبك قبل أن تصل إلى أذنيك، حنطية اللون، كثيفة الشعر، إذا نظرت في عينيها عَطِشت وكأنّك سافرت في البحر ورجعت عطشاناً قد أصاب الدوار رأسك، كأنّ عينيها تتموج كأمواجه، وكأنّ عمق نظراتها على حداثة سنّها تنبئك بأعماق المحيطات التي تحتاج إلى غوّاصٍ ماهرٍ يحسن الغوص ليجمع اللؤلؤ، رشيقة الحركات، هادئة النفس، قليلة الحركة، إذا اشتاقت إلى أمّها رفرفت بيديها كأنّها فرخ طير يحاول الطيران، فسرعان ماتهوي مريم على سلمى بصدرها الحاني لتلقمها حليباً وحباً ودفئاً وعشقاً.

فرح الأب بابنته، ولكن لكل حلاوةٍ غصّة، فهاهي حماة مريم متذمّرةً، تُصدِر التنهيدة تلو التنهيدة، كل واحدة منها تصلح لشواء دجاجة حارة يتطاير منها شظى نارٍ تحرق، لقد اعترضت على الخالق، لماذا أنثى؟! إنّها تحلم بذكر وكأنّ الله كان عليه أن يستشيرها قبل أن يثبت قضاءه في لوحه المحفوظ...

جهالة مجتمعٍ بأسره، رؤوس تحتاج إلى معاول لتفتت التخلف في خلايا أدمغتها وتنبتها من جديد، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول:" إذا وُلِدت الأنثى نادى منادٍ من قبل السماء قال: ضعيفة، خُلِقْتِ من ضعيفة، العائل عليكِ معالٌ إلى يوم القيامة"، ولكن هيهات لأمّةٍ لا

تفقه من الإسلام إلا اسمه ومن الرحمة إلا حروفها أن تتشرّب روعة الأنثى وأيُّ أنثى إنّها سلمى.

إذا رآها القاسي لان، وإذا أمعن النظر في قسمات وجهها الشارد اهتدى، وينحني المستكبر على ركبتيه لتنال شفتاه نعومة ملامسة كفّيها.

سلمى الطفلة تجعل الليل نهار والظلمة نور لعذوبتها وبراءتها وعمق عينيها، كلّ نظرة تُلقِيها تمكّنك من كتابة قصة، وكلّ نَفَسٍ يخرج من رئتيها يملأ الغوطة برائحة زهر الياسمين.

لم يشأ الله أن تبقى سلمى هي الوحيدة التي تتقلب بين يدي أمها وأبيها، فقد كرّم الله مريم بأن تحمل مرةً أخرى، وعاشت أيام حملها بصعوبة تتناقل فيها بين إقياءٍ وألمٍ في بطنها، وبين الشعور بالقرف من شمها لبعض الروائح، حتى وصل بها الأمر أن تشتم رائحة زوجها من بعد أمتار فتهرول لإخراج ما في بطنها...

وحانت الولادة الموعودة لتلقي بين أحضان الحياة روحاً سحريةً متمردةً لمجيئها لهذا العالم فبكاؤها لم يهدأ، وصراخها وصل أقاصي المنطقة، وبين صراخها وبكائها غطت مريم في نومٍ عميقٍ لتريح جسدها المنهك من شقاء الولادة.

ليلى... تلك الطفلة الناعمة ذات الشعر الأشقر الحريري، صاحبة الوجه الأبيض الملائكي الذي يشع نوراً كالشمس التي تتخلل بأشعتها السحب المثقلة بالأمطار، وذات العينين البنيتين التي يذوب من خلالهما كلّ عاشقٍ للذات الإلهية فيسبّح الخالق فيهما.

كانت سريعة الحركة، تحمل روحاً تتسم بالسكينة تارةً وبالشغب تارةً أخرى، وهي كغيرها من الأولاد بدأت تكسب دلالاً من جميع من حولها فهي الأصغر من سلمى، ورغم ذلك فإنّ سلمى كان قلبها يمتلئ حباً وعطفاً على ليلى فلا ترغب بإيذائها، فتحيطها بسياجٍ من الحنان لا مثيل له.

كرّست مريم حياتها لتربية هاتين الطفلتين ووضعت جلّ اهتمامها فيهما، ويقتحم هنا المفهوم الذكوري الذي يقول بوجوب وجود ولد يحمل اسم الأب والعائلة، فتبثّ الحماة وابنتها الكبرى سموم هذه الأفكار في عقل مراد الذي ما يلبث أن ينصاع ويقتنع مباشرةً بكلامهما، فيعمل جاهداً لتحقيق هذه الرغبة.

حملت مريم مرةً ثالثة، ومن المعروف في تلك الأيام لا يوجد ما يسمى بالإيكو لمعرفة ما إذا كان الجنين ذكراً أو بنتاً، ملأ المنزل فرحةً عارمة ظناً منهم بأنّ الزائر الجديد سيكون ولداً هذه المرة.

في ليلةٍ ظلماء كانت مريم مستغرقة في نومٍ عميق رأت في حلمها ولياً من أولياء الله الصالحين وقد نزل من السماء ووجهه يتلألأ نوراً وهاجاً، توجه إليها بسؤالٍ مفاده: يامريم اطلبي ما يحلو لك فإنّ الله سخرني لأحقق لك أمنياتك، فقالت له: أأطلب منك أنت؟ قال: نعم، فقالت: لا، أنا لا أطلب من العبد إنّما أطلب من الله عز وجل، كرّر السؤال مرةً ثانية، فأجابته بنفس الإجابة، ثم كرّر السؤال مرةَ ثالثة وهو يستعد للعودة إلى السماء، فقالت له: أطلب الستر والعفو والعافية، ولكن من الله وليس منك، واستمر في صعوده للسماء.

استيقظت مريم وهي في ذهولٍ تام تستحضر ما رأته في حلمها، وفي الوقت ذاته شعرت بألم شديد في بطنها فقد حانت ساعة الولادة.

تم إحضار الداية التي كانت تعبّر عن فرحها و حزنها، من خلال إيماءات وحركات يديها، فقد وجدت أنّ لغة الصمت أبلغ من لغة الكلام، والجميع خارج الغرفة ينتظرون ولي العهد الموعود والآمال التي رسمت عندما يتحف هذه الحياة بمجيئه، تألّمت مريم كثيراً وكأنّ الجنين يعرف أنّ الدنيا لا سعادة فيها فهو متمسك بحياته الداخلية وسعيد بها. فالحياة داخل رحم أمه أفضل من الحياة المجهولة التي تنتظره.

صرخت مريم وملأ المنزل صداها الحزين، والجميع خارجاً يقرؤون القرآن ويدعون الله بالخلاص لها ولابنها، في لحظة من اللحظات امتزج صوت صراخ مريم بصراخ المولود، فعلت الابتسامات والضحكات الوجوه التي كانت مكفهرة، ظناً منهم أنّ المولود ذكر، وكانت الطامة الكبرى، لم يتحقق حلمهم الذكوري فقد جاءت زبيدة.

زبيدة ... كزهرة الأقحوان المتمايلة مع نسيمات الفجر العليلة، ذات ابتسامةٍ مشرقة تسفر عن لؤلؤ منظوم، صاحبة الشعر الأسود الليلي الحالم، ذات عينين سوداوين تعزفان أجمل أنشودة، وقد خصها الله ببشرةٍ سمراء كلون البرونز المثير الذي تلهث الفتيات الجميلات إلى الحمّامات الشمسية لاكتسابه والحصول عليه، فرزقها الله إياه بالمجّان و دون عناء.

ربما الحنان الذي يسيطر على قلب مريم قد انعكس إيجاباً على بناتها فهاهي سلمى و ليلى تهتمان بزبيدة اهتماماً كبيراً، فلا نجد غيرةً ولا نجد كرهاً أبداً، وإنما حباً واهتماماً وعطفاً بها بعكس سائر الأولاد الذين ينتقمون ممن هم أصغر منهم.

لكن هذا الأمر وجدناه عند زبيدة عندما جاءت شفاء، الرقيقة كرقة الديباج، الهادئة كهدوء الليل، المشعة كنجم سهيل، فتراها بيضاء لينةً متمايلةً تغوي الناظر إليها، جاذبةً للعيون والقلوب محرّكةً للمشاعر.

مع كل التفاتةٍ منها يقطر الياسمين فيدوخ الجالسين نشوةً وسحراً، ذات شعرٍ متموجٍ بني تارةً وأشقر تارةً، إذا سقطت عليه أشعة الشمس تتسلل بين خصلاته وكأنّها تتعشّق عناقها، برموشٍ طويلةٍ حادةٍ تجرح من تنظر إليه فتارةً يمتلئ إعجاباً وتسبيحاً وتارةً يتلوع من عشقٍ وغرامٍ. رموشٌ خاصةٌ بتجريح القلوب فإذا جُرحت قطرت عشقاً وسُكراً إنها العيون التي تجعلك تجثو على ركبتيك دون أن تقرر الجثو، إلهةً للجمال.

عندما جاءت شفاء إلى الحياة استجمعت زبيدة جميع قواها لمعاكستها ومناكفتها، فهذا أمر طبيعي عند جميع الأطفال عندما يجدون طفلاً آخر مدللاً أكثر، فبدأت الغيرة تنشب أظفارها في زبيدة التي كانت مدللة عند الجميع فقد انتقل هذا الاهتمام إلى شفاء الصغرى التي أصبحت زبيدة تتقن فيها كلّ فنون الضرب انتقاماً منها.

حتى أنّ يوماً كانت مريم خارج الغرفة وقد تركت شفاء نائمة في سريرها، فزحفت زبيدة خلسةً بهدوءٍ غير معتاد وأخذت الوسادة ووضعتها على فم شفاء وجلست عليها تترنح يمنةً ويسرةً، وتصفق فرحةً بالانتصار، وبالصدفة دخلت مريم الغرفة فوجدت هذا المنظر المريع فما كان منها إلا أن أبعدتها وكانت شفاء تلفظ أنفاسها بصعوبة، وبعد محاولة الاغتيال هذه قررت مريم أن تجعل شفاء تحت ناظريها، فكانت تدخلها في عربتها إلى المطبخ لتطمئن على سكونها وعدم اعتداء زبيدة عليها، لقد استشاطت زبيدة غضباً لتحول الاهتمام عنها ولكن هذه سنّة الحياة فلكل طفل جنة من الزمن يتضاءل نعيمها بعد وجود منافس صغير جديد يستأثر بإشراقات الحب وفيضان الحنو...

لقد سئل أعرابي مرةً: " أيّ أبنائك أحبّ إليك، فقال: صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يشفى وغائبهم حتى يعود"...

فالله عزّ وجلّ يفجّر في كيان الكبار عاطفةً تسيل رقراقةً تجاه الأصغر سنّاً فهو الأضعف الذي يحتاج إلى حماية مستمرة.

ودارت الأيام ومريم تذوب كالشمعة لتنير حياة بناتها بالدفء والأمن والسكينة، لم يكن حملها هيّناً ولم تكن ولاداتها سهلة بل عانت وعانت وسبحان الله الذي قال:" وحملته وهناً على وهن"[1] بمعنى الصعوبة والمشقة، فتخيّل لو أنّني حمّلتك الآن في يدك خمسة كيلو مثلاً وألزمتك أن لا تُنزِلها أبداً في يقظتك ونومك وأكلك وشربك وشغلك وفراغك بل حتى في حمّامك.

وليت الأمر يقف عند ذلك بل إنّ هذا الوزن يمتص غذاءك فيشرب من دمك ويستنشق من هوائك.

فصدق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم حين أوصى ذلك الصحابي بعد أن سأله: " يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: أمك، قال: ثم مَنْ؟ قال :أمك ، قال: ثم مَنْ؟ قال : أمك، قال :ثم مَنْ؟ قال:أبوك"[2] فجعل ثلاثة أرباع البر للأمّ والربع الأخير للأب.

[1] سورة لقمان، آية 14
[2] رواه مسلم

وأيّ أمّ؟! إنّها المتفانية التي تستمدّ بريق فرحة عينيها ولمعان حدقتيها من ابتسامةٍ تنبع من بين شفاه بناتها، لقد كانت تأكل لأجلهم فهي تأكل ليأكلوا وتشرب ليشربوا وتتفانى ليهنؤا وتسعى ليسكنوا وتسهر ليناموا، وليت بنات هذا الجيل يتخيّلن قدر جهد أمهاتهن.

أمّ الأمس أقدس من أمّ اليوم بسنواتٍ ضوئية، لقد كانت إحداهن تحت قدمي زوج جبّارٍ كي تضمّ أولادها إلى صدرها، أما الكثيرات فإنّهن يركلن الزوج والولد معاً لتقصير في النفقة أو لعصبية طائشة أو لحبٍّ يغزو حياتها الزوجية فتختار العشيق وتقذف بالرضيع.

وبحسبك أن تعلم أنّ أمّ الأمس كانت تمسح الأذى بيديها عن ولدها وأمّا ما بقي فتسيل عليه الماء في بيت الخلاء ثم تفركه بيديها الطاهرتين حتى يزول أثره لتغليه بالماء وتعقمه ثم تعيده ثانيةً، لتلفّه بين أقدام أولادها.

أمّا اليوم فالأمّ تقرف وتمتلئ امتعاضاً عندما تقوم برفع تلك القماشة وطويها وقذفها في سلّة المهملات، فلا تفرك ولا تشطف ولا تمسّ الأذى بيديها ولا تضطر لفصله عن القماش وفركه بالماء والصابون وتحمّل الرائحة ثم غليه حتى يعود طاهراً كما كان.

لقد التقى أمير المؤمنين علي عليه السلام برجلٍ في الحجّ يحمل أمّه على كتفيه يطوف بها حول الكعبة سبع أشواطٍ وقد سعى بها بين الصفا والمروة سبع أشواطٍ أخرى وقال لأمير المؤمنين: "أَتُرَاني قد وفَّيتها حقّها؟ فقال له: لا والله ولا طلْقةً من طلقات مخاضها".

لقد صبرت مريم على زوجها رغم كونه كريماً معطاءً متعبّداً ولكنّه كسائر الرجال كان ملاطفاً للنساء، وكم هذه الصفة في الرجل تدمّر أعصاب المرأة لأنّها تطعن بكرامتها، لقد صبرت وصبرت وهمّها الأوحد أولادها أن يلتصقوا بصدرها ويناموا في حجرها، فلا يخفى على الأمّ الرؤوم ماذا تصنع بالفراخ امرأة الأب؟.

كان يغيب عنها كثيراً، يلتصق بأمّه ويطأطئ برأسه أمام أخته الكبرى التي تبثّ في أذنيه سمّها الزعاف.

ولا يخفى على كلّ دمشقيٍّ ودمشقيّةٍ ما تبثّه بنت الحما في رأس أخيها ضد زوجته، كثيراً ما يهجرها ويجافيها وينام بعيداً عنها، ومريم كتلة من العاطفة والرحمة تتغذّى بالحب وتتنفّس بالحنان، لقد حصرت كلّ عاطفتها بأولادها، وكم صبرت على عصبيّته وحدّة ردّات فعله وتشبثّه برأيه وجفوته، إنّ القسوة عند كثير من الرجال سمة الرجولة وللأسف ساد هذا المفهوم في الماضي وهو يسود اليوم.

مع العلم أنّ سيّد الرجال محمد عليه أفضل الصلاة والسلام كان رقيقاً، رحيماً، عطوفاً، ولا سيّما بالمرأة، فقد أوصى وهو على فراش موته قائلاً:" اتّقوا الله في الضعيفين، المرأة واليتيم"[3] ولم يمت رسول الله (ص) وهو ساجد، ولم يمت وهو يحمل السيف يجاهد، وإنّما مات على صدر زوجته بين سحرها ونحرها، وهذا ليس صدفةً إنّما تعبيراً إلهيّاً عن عطفه وحنوّه ورحمته...

[3] تخريج السيوطي، (هب) عن أنس، تحقيق الألباني

كانت مريم كنبتةٍ خضراء، نضرة يانعة، تفتقر إلى ماءٍ يبلّل أوراقها وأزهارها ولكن لم تجد هذا الماء الذي يروي ظمأها فكانت تعطي ولا تأخذ.

اكتفت مريم ببناتها الأربعة ولم ترغب في الإنجاب مجدداً، فقد تعبت وجسمها بدأ يهرم قليلاً قليلاً رغم صغر سنها فهي لم تبلغ بعد الثامنة والعشرين من عمرها، لم يرض مراد بهذا الأمر فهو يريد صبياً يحمل اسمه.

لم تهدأ الخلافات بينهما حتى رفع بشكواه إلى كل من يصادفه في طريقه بأنّها لا ترغب بالإنجاب ولا أدري ما الذي يجول في ذهنها، ربما تريد أن تنفصل عني وتتزوج بآخر... لا أدري!

كان يستخدم أسلوب الشفقة والعطف ليحصل عليهما من خلال عيون الناس وليظهر بمظهر الإنسان المسكين المخدوع من قبل زوجته، بينما زوجته كترنيمةٍ سماويةٍ في محراب الطهر والعفة لا يعرف الخداع طريقها ولا تطرق الخيانة طبعها.

خضعت مريم لطلبه، وجاءت بيسان.

بيسان.... كقطرات الندى الرطبة المنسابة من وريقات زهور القرنفل الأبيض، ذات عينين كبيرتين سوداوين تشع لمعاناً كجوهرتين متلألئتين، وشفاهٍ رقيقةٍ استمدت من الورود حمرتها، بيضاء ناصعة.

خاب الأمل مجدداً، فالمولود لم يأتِ صبياً، وإنما أيضاً بنتاً، اصطفت العائلة حول مريم وابنتها الجديدة، وهم يتفوهون بعبارات التبريك والتهنئة لها، إلا أنّ بيسان استقبلت الحياة بطبعة خماسية الأصابع وُضِعت على وجهها البريء من قبل جدتها حيث قالت: "كمان بنت يييييييي".

وكأنّ البنت برية المبراة التي تُجمَع وتُرمى في سلة المهملات، على الرغم من أنّ الله كرّمها ورفع من شأنها وخصّها بسورةٍ من القرآن الكريم وهي سورة النساء، بل إنّ رسول الله (ص) قال: " من رزقه الله ثلاث بنات فأحسن إليهن وأكرمهن ولم يفضّل ولده عليهن كنّ له وجاءً من النار، فقام رجل قال: وابنتين يا رسول الله؟ قال: وابنتين، فقام آخر فقال: وواحدة؟ قال: وواحدة"[4].

فتلاحظ أنه لم يخص الذكور بل الإناث وهذه مكرمة للإناث.

على الرغم من ذلك لم تكن الابتسامة تفارق محيّا مراد عند ولادة كل طفلة، بل كان يتوضّأ ويصلي ركعتين حمداً لله لسلامة مريم ولسلامة المولود.

سُرَّ كثيراً بهن، لكنّه كان يُظهِر أمامهم وجهاً آخر يدل على الامتعاض وعدم الرضا و ذلك لإفراطه في مسايرة أهله مع العلم أنّ الاعتراض من البشر على جنس المولود يعتبر اعتراضاً على الخالق عزّ وجلّ ورفضاً لقضائه وقدره.

[4] رواه مسلم

وهذا يتناقض مع صريح الإيمان ويبدو أنّ تربيته الشديدة أثناء صغره جعلته نسخة لكثير من الرجال في تلك السنوات يتبعون الأهل دون اعتراض أو محاكمة عقلية ويتبعون التقاليد ظناً منهم أنّها دين.

فحرص على عدم تعليم أخواته في المدارس لأنّ المجتمع ينظر للفتاة التي تخرج من بيتها لمدرستها نظرة غير لائقة.

والمصيبة أنّهم ينسبون هذا إلى الدين مع أنّ المصطفى عليه الصلاة والسلام خصّص مجلساً للنساء للتعلّم كالرجال تماماً، والقرآن والسنة حثّت على العلم ولكن ما عساك أن تفعل بمجتمعٍ تحجّرت عقوله على تقاليد بالية تُحطّم ولا تبني.

وقد حاول أن يمنع البنات أيضاً من العلم والتحصيل الدراسي لولا ثبات مريم كلبوةٍ تزأر عند اقتراب أحد من أشبالها، فقد صبرت كثيراً على جفافه وانصياعه وإذعانه لأهله وتقاليد مجتمع بالية، ولكن تتحرّك أمومة الحبّ والحميّة عندما تُمَسُّ شعرة من فراخها الفاتنة فقد تصلّبت وواجهت تيّار المجتمع المتخلّف بأسره فدرّست بناتها في المدارس، فهي لا تنسى كيف منعها أبوها يوماً متابعة دراستها فلن تقبل أن يتلظّى بناتها بذات النار التي كُوِيَت به يوماً، قد يغفر الإنسان ويتسامح في حقّه، ولكن من العسير بمكان أن يتسامح في حقّ فلذّات كبده وشرايين قلبه، وقفت ببسالة تنخر الصخر بأظافرها لتتنفس غراسها الهواء وتشقّ طريقها تحت أشعّة الشمس.

لقد تعبت وقاست وظُلِمَت كثيراً وسهرت ليالي طويلة تبكي وتتصبّر في سبيل هدف وأحد ...أولادي...

فلن تسمح لمجرفة القهر والتخلّف والجهل أن تجرف أحلامها في صغارها كما جرفتها يوماً ودمّرت شاعريتها وحلمها في الدراسات والتألّق.

إنّها تحمّل نفسها كثيراً من التناقض، فتارةً تكون حمامة رقيقة تتأثّر بنسمات الهواء وتارةً أمّاً لبوةً تدفع بكل عنفوان وقوة ما يراد بصغارها ومستقبلهم.

لعل البعض يفسرونه تناقضاً ولكن يجب عليهم أن يسمّونه عاطفة الفناء، فكل ذرة في كيان مريم كانت تنبض بعشق أولادها، إنّها الأمومة بأروع صورها وأبهى أشكالها.

لقد صبرت على أهل زوجها الذين يتهمونها بكونها أمّ البنات، صبرت على جهلٍ دينيٍّ، اجتماعيٍّ، فيزيولوجيٍّ مركبٍ، ومما زاد الطين بلّة عصبيّةً جاهليّةً بحيث يشعر الإنسان أنّه معتقل وراء القضبان.

فكلّ نَفَسٍ لا بدّ أن يُستَأذن قبل أخذه، وكلّ زفرةٍ لا بدّ أن تحصل على موافقة قبل خروجها، الأبواب، النوافذ، الخروج من البيت، الاتّصال بالهاتف، التعبير عن الرأي، حتى حريّة الحلم والأمل كلّه مكبّل– مقيّد.

كانت لا تريد الزواج، لا تريد الأسر تكره الأغلال في معصميها، لقد طرق بابها الكثير ولكنّها كلما رأت تزمّتاً وثياباً سوداء، وخماراً أسود خافت من ظلمته، هكذا طبع القمر يبدّد الظلام من حوله وأيّ عاقلٍ يخفي القمر بخمار؟!

هل أخبروك بأنّ كلّ المُغرَمين يسترقون إليها النظر!!!

وكيف لا تُفتَن بها وحضورُها الساحر كفيلٌ بأنْ يبهرَ البصر...

تخترق بُحسنِها شعاعَ النجمِ تُسامرِ بعذوبتِها كلّ ليلِ ضياءِ القمر...

منها تُقتَبس أساطيرُ الغزَل...

غنيةً بروعتِها والحبُّ منها كل لحظةٍ ينتظر...

والشعرُ وقوافيه خُلِقَ ليكتُبَ عنها بشغف...

لا يَملُّ منه وأبداً لا يَختصِر...

لقد عشقت نسمات الحريّة ولكن شاءت الأقدار أن يتسابق المتزمّتون لخطبتها.

ولمّا رأى مراد تسابقهم، يرتعد خوفاً، فأيقظ أهله في منتصف الليل يطلب منهم خطبة مريم ونتيجة عشقه القديم لم يتحمّل أن يصبر حتّى الفجر أو طلوع الشمس فمازال بأمّه يحفّزها ويضغطها حتّى خرجت فجراً عند أذان الفجر لتطرق باب مريم، فقد فطنت الأمّ أنّ أنفاس مراد تنادي مريم، وأنّ رئتيه يمكن أن تستغني عن الأوكسجين ولا تستغني عن مريم.

فجمعت عليها ثيابها وطرقت باب أهل مريم فجراً فتعجّب الناس من موعد هذه الزيارة العجيب ولكنّهم لو علموا أنّ خلف هذه الغرابة عشق جامح وعاطفة مهيمنة لَفَهموا أنّ زيارات الفجر معقولة أو منطقية جداً،

لقد فرحت أمّ مريم لسببين أولهما: عشق هذا الشاب لابنتها فلولا هذا العشق لَمَا طرقوا الباب في هذا الوقت ولعلّ العاشق أن يرفق بمعشوقه فاطمئنت لمستقبل مريم و ثانيهما: حب الوالدة لمراد خطيب ابنتها لأنّها تعرفه يحمل من الصفات أحسنها فقد كان مهذّباً، خلوقاً، مستقيماً.

وأمّا أبو مريم فكان له شأن آخر، لقد امتلأ جسده ونفسه تردداً لعلمه بقوة أم مراد وشدة شكيمتها، وصعوبة طبعها فخشي على حمامته البيضاء أن تتأذّى بمخالطة تلك المرأة، ولكن للقدر أحكام فإذا نطقت السماء همدت الأرض وإذا جرى القلم ركعت الجباه فيكون ما قاله الجبّار القهّار كن.

وليتهم أحسنوا صحبة مريم، فقد حصلوا على حمامةٍ نادرةٍ تحتاج لعشقٍ ودلالٍ وإكرامٍ.

واستمر لهاث الحما وحثّها المتواصل رغبةً منها أن ترى من ابنها ولداً يطفئ ظمأ عطشه بعد أن هام في صحرائه المحتواة صبّاراً مليئاً بالشوك الذي يجرح كل من أمسك به، فهو المبتلى بالبنات الخمس.

تمّ الاتفاق بينهما والأمل أخذ حيّزاً من حياتهما على أنّ المولود هذه المرة سيكون صبيّاً.

في انتظارِ مولودها الذكر...

كأنّها ترسلُ إلى السماءِ الأمنيات...

متلحفةٌ بغطاءِ الدعوات... صارخةٌ بالمُناجاة...

تنتظرُ وصولَ الدفءِ إلى الدار...

ستحتفي به كمَا لو أنّها حصلَتْ على الجنانِ...

وهل يُضاهِي الفرحُ شيئاً في قلبِ البتولِ...

في قلبِ الشامخةِ سليلةِ العراقةِ والأمجاد...

كأنّها تستقبلُ نبياً...

ستخضعُ لكلِّ ما يرجوه من مُتطلّبات...

فمريمٌ نبعٌ لا ينضَبُ من الحَنان...

وفي حضورِه سترتقي إلى مرتبةِ الملكَات...

وستعُولُ عليهِ كثيراً...

حقيقة... كان أكثر مُبتغَى لها في الحَياة...

وفعلاً أراد الله أن يكرّم مراد بمولودٍ ذكرٍ، جاء محمّد بعد طول انتظار، جاء محمّد بعد البنات الخمس، فكيف تخال يكون الاستقبال؟ وكيف تخال تكون الفرحة؟

فرحت الأعين وارتجفت الشفاه وارتعشت الأيدي، ولاح الفجر من جديد، ابتسمت السماء وأطلقت رذاذاً منعشاً فكأنّها تبكي فرحاً لولادته.

طارت العصافير وتنقلت من غصنٍ إلى آخر وهي تطلق أجمل الألحان.

هذا كان حال مراد والعائلة، وجدوا كلّ شيء مختلف.

حمله بيديه المرتعدتين، ينظر إليه بعينين برّاقتين عكس نور بريقهما على وجهه الصغير.

يجول بناظريه إليه وهو يسأل نفسه:

هل أنت حلم مخبّأ في مكنونات النفس؟! أم أنت حقيقة كائنة منذ زمن وستبقى معي إلى نهاية العمر؟!

أغمض عينيه المغرورقتين بالدموع، بعدها باشر يؤذن في أذنيه الصغيرتين.

شعر بحبٍّ قويٍّ جارفٍ اتجاهه، فها هو الحلم قد تحقق وهاهو فلذة كبده يرفرف كعصفورٍ جميلٍ في فضاء أحلامه التي كسرت الحواجز وأصبحت واقعاً معاشاً.

محمد... كالحلم النائم الجميل الذي أيقظته عواطف الحب المختبئة خلف نسائم القلوب، كان أسمر اللون، ذا شعر مجعد أسود، وعينين سوداوين كبيرتين، برموشٍ طويلة دقيقة المعالم، مرسوم الفم، لطيف الأنف، يتحرّك حركات تنطق بالقوّة والتسلّط والزعامة، يركل بقدمه في السرير وكأنّه سلطان يركل قائد جنده...

لا يرضى أن يُحمَل على الأيدي وهم أيضاً لا يرضون، وكأنّ فخامته تطلب من الآخرين الحمل على الأكتاف والرؤوس فقد لقّب منذ ولادته بوليّ العهد.

إنّ كلّ عصارة عُقَدِ المجتمع الذكوريّ صُبَّتْ عند قدميه، إنّه الصغير المبجّل يجب أن لا يبكي ولا للحظة فلتتسابق الأخوات على حمله.

فصاحبنا قد حُرِّم على ظهره ملامسة السرير، إنّه المقدّم المفضّل، هو الأمل الموعود والحلم المفقود والعزّ المنشود.

يجب على الجميع أن يرقص حواليه رقصة النحلات المخلصات الباذلات أعمارهن وجهدهن في سبيل أن يبتسم السلطان على عرشه ابتسامةً راضيةً.

فالكلّ متّهم بالتقصير وليت الأرض تعرف مَنْ عليها لتقبّل قدميها.

لقد دخلت مريم بفضله تحت دائرة الرضا فبه وحده استحقت أن تكون زوجةً لولدنا مراد.

إنّها جاهليّة البشر، ذكورة مقدّسة في الشرق والغرب، ولا يغرّنك تحرّر المرأة في الغرب، فقسوة الذكور تسحقها أيضاً، إنّهم البشر أينما كانوا...

فقد عاد خلل المجتمع الذكوري ينصبّ نقمةً على حمامتنا لأنّها أنجبت خمسة إناث فلمّا طلّ الذكر فطنوا إلى مريم الطائر النادر الذي أهملوه وقسوا عليه كثيراً.

لقد انحلت العُقَد لرؤية الصبي وبدأت الحفلات يومين متواصلين، غناء وطرب ووفود لا يكاد باب البيت يهدأ، فتح وإغلاق، نساء وهدايا، ضحكات وموسيقى، طعام وحلويّات، ولا ننسى الكراويا التقليد الرائع الرائج، الذي تصنعه نساء دمشق عند قدوم المولود، يجتمعن ويأتين بالكراويا، النبتة الرائعة، حلوة الطعم، تزكيّ الأنفاس، وتملأ الصدور

فرحاً، يقلبونها على النار ويزينونها باللوز والفستق والجوز وجوز الهند فيغدو طعاماً نفيساً.

كل ملعقة منه تدخل الفم فتملأه لذّةً ودفئاً وسعادةً فقد تعانقت الصفات الثلاثة في ملعقة واحدة.

وها هي الوجوه التي كانت منقبضة بالأمس انبسطت (انشرحت) اليوم بالضحكات، وهاهي البطون المتدلية تهز وتتكسر رقصاً، وهاهن الصبايا يملن بقدودهن الميّاسة، وانهال التصفيق بأناشيد تفعُمُ بعبق التراث.

وارتدت النساء أفخم ثيابهن وفساتيهن المزيّنة بحبال اللؤلؤ، ودارت النشوة في كلّ زاوية من البيت بل من البناء بأسره وبدأت تتسابق صواني الحلويّات من المدلوقة والكنافة والوردات بالقشطة والمبرومة المعجونة بالفستق الحلبي والمغشوشة.

وليتك رأيت مراد يمشي على الأرض وكأنّه يقفز قفزاً وقد خطّ الشيب سوالفه تحسبه لفرط نشاطه شاباً في السادسة عشر من عمره.

حقاً إنّ الفرح يعيد الشباب ويأخذ بيدنا إلى أيام الصبا.

أما مريم فقد فردت جناحيها كطاووس رائع الجمال، باهي الألوان، علت خدّيها حمرة خجولة وعينيها تلمعان بفرح وبراءة، أشبه بنظرات مريم العذراء.

لقد انحنى الجميع أمامها شعوراً بفضلها، وسروراً بولدها، أليس هو الذكر؟!

مرّت أشهر والبيت فيها يطير تألّقاً وانسجاماً، لقد كان صراخه سمفونيات تدخل آذان الكل ولا سيّما مراد، هذا إذا سُمِعَ له بكاء أصلاً. فالأكفّ الحانية والصدور العاشقة تكبح البكوة في مهدها، ولكن هذا الإفراط جعل الصبي يتصرّف بدلالٍ زاد عن الحد فانقلب تحرّشاً بأخواته.

فمنذ أن مكنته قدماه من السير أخذ يركض خلف شقيقاته ليجرّب حدة أسنانه في أجسامهن الطرية، فبدأت المعاناة وكثرت الشكوى، وكل هذه السنوات كانت الأمّ عاكفةً على مكنة الخياطة تنسج الثياب مع الأحلام، وترقّع الواقع مع القماش لتبني أسرةً.

فمراد دخله محدود والصغار لا يقنعون إلا بالشبع والدفء فكان عبء ذلك كله على كتفيها الرقيقتين وزنديها الفاتنتين وأصابعها اللؤلؤية التي يمتصّ القماش منهن جماله وفتنته وإثارته.

لقد كانت حقاً مبدعةً لا تخيط ثوباً وإنما ترسم لوحةً، فإذا تخيّلت بيكاسو ينسج ثوباً من حرير لَعَلِمت فن مريم ورقيّها وعذوبتها.

تسابقت النساء على بابها لتنهل من أناملها الساحرة فتزداد أنوثةً وجمالاً بثيابٍ مرت تحت راحتيها الناعمتين، وكان ذلك جهداً يمتص من عصارة رحيق وردتنا فتذبل شيئاً فشيئاً وعزاؤها أنّها تقطر رحيقها في ثغور فراخها.

فليتهدّم عودها الفاتن في سبيل بناء أعواد أبنائها وبناتها... وليت مراد يشعر بهذه التضحية وهذا النزف لكيانها وأعصابها وفقرات ظهرها، بل كان يبخل بالتعبير عن ذلك لكبرياء ذكورة الشرق، فقد علّمهم أساطين

الرجولة في حارات الشام القديمة أنّ الكلام المعسول للمرأة يهدر من قيمة الرجل وكرامته وعزّته فتجدهم يتخفّون خلف خشونةٍ قد تكون مصطنعة للمحافظة على هيبتهم كما يعتقدون مع العلم أنّ مثيلاتها من النساء كن يسرحن ويمرحن ويرفعن الصراخ عالياً لجلب خادمة تعينهن على ولدٍ أو ولدين لا ثمانية أولادٍ مع عمل خلف مكنةٍ أقرب ما يكون إلى الأشغال الشاقة.

ومن الإنصاف أن نقول: في ظل هذا الطقس الغائم تتباعد الغيوم قليلاً وتشرق أشعةً دافئة تقول لمريم: الله يعطيك العافية يا مريم.

فلا يكاد جسدها المنهك أن يمتصّ دفء هذه الأشعة ليسترخي بها حتى تتراكم الغيوم ثانيةً وترجع فلسفة الذكور لبيتنا الدمشقي.

لقد كانت أمّاً من اللواتي قدّس الله قدميها فجعل جنّته تحتهما.

وبدا أهل مراد يطالبون بصبيٍّ ثانٍ ولا سيّما أنّ باب الذكور والفرج قد انفتح، فعلينا اغتنام الفرصة كما قال الشاعر:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها فلا تدري متى يكون السكون

ولا سيّما أنّ محمّد يحتاج إلى أخٍ كي لا يكون وحيداً ويكون عوناً لأخواته البنات على نوائب الدهر ويرفع اسم العائلة ويكثّرها، فالأولاد الذكور يحملون كنية الأب أمّا الإناث فليس لهن ذلك.

وفعلاً..... خضعت مريم لرغبة هذه الأسرة مع العلم أنّها ولدت ست مرات وهذا يمتصّ البقيّة الباقيّة من رحيقها، ولكن لا مفرّ.... حملت مريم وجاءت البشارة الإلهيّة من السماء فرأت شيخاً جليلاً في حجرة

المطبخ وقد فتح باب نمليةٍ مركونةٍ في الزاوية ووضع بداخلها مصحفاً كبيراً ثم أغلق الباب.

استيقظت مريم وقد علت معالم الاستغراب وجهها الجميل، فقد قصت الحلم لأحد المختصين بتفسير الأحلام وأفادها بأنّها ستضع مولوداً ذكراً وعليها أن تسميه باسم الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك لأنّ القرآن قد نزل على النبي محمد (ص)...

بما أنّ وليّ العهد اسمه محمد، فقد تم اختيار اسم أحمد.

وبالفعل جاء أحمد و زاد نور المنزل ضياءً وبهاءً كما يظنون.

أحمد... كابتسامةٍ هادئةٍ لطيفةٍ رُسِمت من العواطف الصادقة والأحاسيس الملتهبة، يتمتع ببشرةٍ بيضاء نقية نقاء عذوبة الماء، خمري الشفاه، مكحل العينين برموشٍ طويلةٍ مقلوبةٍ تأسر القلوب وتغل العقول.

كان يشبه الليل في هدوئه وسكونه، يستعير من القمر نوره وبهجته، ومن الشمس دفئها وحنوها.

لم يكن الدلال الممنوح له أقلّ شأناً من أخيه فهو الابن الذكر، إن كان محمد وليّ العهد الأول، فأحمد وليّ العهد الثاني للعائلة، لم يُرفَض له طلب، وكل ما يريده مُجاب، حتى أنّ يوماً كانت سلمى قد اصطحبته معها إلى السوق لتشتري بعض الحاجيات الضرورية لها، وفي طريق العودة للمنزل مرت أمام متجرٍ لبيع اللعب الباهظة الثمن، وكان أحمد قد لفت نظره إحدى اللعب فأحبها وبدأ يبكي وينوح ويذرف الدموع

ويضرب الأرض بقدميه بغية اقتنائها، لكن سلمى في ذلك الوقت كانت قد استنفذت جميع نقودها ولم يتبق لها سوى أجرة الحافلة.
فما كان منها إلا أن خلعت أسورتها الذهبية وذهبت إلى أقرب صائغ وهي تهدّئ أحمد وتوعده باللعبة فباعت الأسورة وأحضرت اللعبة.
كانت طلباته أوامر تُنَفَّذ، وأحلامه نسيمات لا بدّ أن تبتسم يوماً في الشفاه.
سلمى أرق من الندى، تحمل قلباً محباً يخشى على الآخرين، لا تسمح لنفسها أن ترى دمعةً مهراقةً على وجنتي أخوتها، فهي الأخت الحنون والأم الرؤوم.
سبعة أولاد انتزعوا من مريم قوّتها، واستمدّوا منها رقّتها، وسلبوا من عمرها الجميل كلّ مباهج الحياة.
تعب وعناء وشقاء، حياة مريم تتلخّص بهذه الكلمات الثلاث، لم ترَ في حياتها ما يبهجها منذ أن فتحت عينيها إلى الدنيا وبدأت سطور الكدح والعناء تُخَطُّ وتُكتَب.
تتالت الأيام والسنون وكبرت البراعم الصغيرة فأصبحت بعمر الزهور الفرحة بقدوم الربيع، تملأ حياة مريم سروراً وبهجةً.
فهاهو تألق الأولاد وخطاهم الواثقة على الأرض، دراستهم ، تفوقهم، عملهم، عذوبة صباهم الذي ينمو ويسري في حياة مريم كسريان الماء العذب الرقراق في جدولٍ من جداول الحياة.
بدأ حصاد السنين وبدأت الثمار تنضج وتزهر ومريم ترمق حصادها بنظراتٍ من الرضا والسكينة، شبابٌ متألقٌ، وبناتٌ ناجحاتٌ رائعاتٌ، لم

يذهب تعبها أدراج الرياح، لقد بذلت وروت ورعت فجاء موسم الحصاد.

ولعل الإنسان ينسى كل تعبه حين يرى أولاده يقفزون على الأرض متميزين، وهكذا دورة الحياة ونظام الكون، نتعب لنحصد، ويتعبون ليحصد أبناءهم من ورائهم.

إنها قدسية الأمومة وفلسفة العطاء وكينونة التفاني كله يُختَصَر بأربعة أحرف أو حرفين إنها الأم.... إنها مريم.

وتتابعت الحياة وقرّرا التوقف عن الإنجاب، فقد استُنفِذَت طاقة الأم، وثَقُلَت النفقات فقد أصبحوا تسعة في بيتٍ واحدٍ ويحتاجون إلى الكثير والكثير في زمنٍ يعجز الفرد الواحد فيه عن نفقته الخاصة فما بالك بتسعة؟؟؟.

ولكن هذا الكلام ينطبق على امرأة عادية لا ينطبق على عظيمةٍ مثل مريم، فقواعد الاقتصاد تتحطم عند قدميها، تفانيها وحكمتها تتجاوز الاقتصاد بمراحل، فمع كثرة النفقات استطاعت أن تستثني مبلغاً تضعه فوق ميراث أبيها لتنتقل و أسرتها إلى بيتٍ جديدٍ ودّعت فيه الحارات الضيّقة التي تعبق بروعة التراث على ضيقها وزواريبها المتعرجة وحفرها الكثيرة وكبّادها وياسمينها الفوّاح وبحرتها ونوافذها الصغيرة المتعانقة، ودّعت كلّ ذلك إلى بناءٍ ضخمٍ عصريٍّ يطلّ برأسه على شوارع عريضة مليئة بالاكتظاظ والضجيج، بشر وسيّارات وحافلات وزمامير كخليةٍ تنضح بل وتضج بالحياة، وداعاً لسكينة الحارة ووداعاً لشجرة النارنج ووداعاً للنوافذ المتلاصقة.

لقد كانت منطقة شعبية حقاً ولكنها تفيض بعبق الماضي وسكون الحاضر وتراحم الجوار وعاطفة الإنسان.

أما البناء الجديد فحضاريٌّ حقاً ولكنها حضارة الغرب المستوردة في ما وراء البحر والمحيط، غريبة عن الماضي على مدنيّتها وتقدّمها...

وداعـــاً للبســـاطة وأهـــلاً بالمعاصـــرة.

وما لبثوا أن استقرّوا في المسكن الجديد حتى طلّ عليهم القدر بأعذب فاكهته وأحلاها سكراً، إنّه حَمْلٌ جديدٌ، كان غلطةً حطّمت أسوار الممانعة وإرادة التوقف عن الإنجاب لتعلو إرادة عليا عظمى سامية، إرادة الخالق.

لقد نطق الربُّ بحرفين: كن، بكلّ جلال وكبرياء وجمال فقال: كوني جنى لكل من التصق بك، وسكب فيها من عصارة رحيق الفتنة ما يصيب الخمر بالدوخان فكانت أقحوانةً من الجمال، عقيقةً في النعومة، تستعبد كلّ من نظر إليها أو سمع صوتها، تتضاءل العاطفة لتندس تحت قدميها، كانت دافئةً في مشاعرها، إذا رمقتك برموشها مرةً شعرت بأنّك تقرأ قوله تعالى:

" حورٌ مقصوراتٌ في الخيام"[5].

ونشأت جنى شفّافةً سخيّة الدمع يحنّ قلبها على كلّ مَنْ حولها، تبكي إذا رأت أخيها أو أختها تبكي.

بدأت تحبو على الأرض فتنتقل من غرفةٍ إلى غرفة فكلّما أطلت بوجهها على غرفةٍ أشرقت شمسها وتسرّبت السكينة إلى صدور

[5] سورة الرحمن، آية 72

الجالسين فيها، لقد كانت رومانسية بالفطرة، سيمفونية تحبو على الأرض، وسرعان ما لامست عذوبة عزفها أوتار قلب سلمى فالتهفت عليها وتناغمت معها فكانت أمّاً ثانيةً لها، وسرعان ما سرى عشق الصغيرة إلى ليلى فكانت الثالثة، وكم سُئِلَت جنى: مَن أمّكِ يا صغيرتي؟ فتقف حائرةً ثم تشير بإصبعها إلى أمها وأختيها وكأنّها فهمت على حداثة سنّها أنّ لها ثلاثة أمّهات، فلشدة عطف أختيها لم تستطع التمييز، فعبق الحب ينهمر من ثلاثة ينابيع انهمار شلّالٍ عذبٍ نقيٍّ، يملأ الجسد ريّاً والقلب طهراً والصدر سكينةً والعيون فرحةً.

وهاهي الأسرة تسري في طبقات الزمن تستنشق هواءها وأملها من عاطفة مريم، لقد كانت تسهر ليناموا، وتبرد ليدفئوا ويطمئنوا، كان قلبها يسير مع حركات أقدامهم فإذا اختلّ توازن قدم أحد فراخها اختلّ معه نبضها، فلحن القلب منسجم مع ضربات أقدامهم في عالم القدر، هاهي تعتصر ألماً على سلمى فقلبها ضعيف وقلب أمّها أشد ضعفاً لا لخللٍ في أوردته بل لخوفٍ فاض فملأ حياتها.

سلمى

دمعة الفرح وهبة الرب

ترقدين في فراشِك... وأبكيكِ بأنين

وكيف يشعُ القمرُ بلا سلمى...

فصمتكِ يكوي لَيلي...

تحرقُ نسمات السلوى...

اغضبي وعاتبي...

حطِّمي بضجيجكِ غلافَ الكون...

شمِّري عن ذراعَيكِ واصرخي بأعلَى صوت...

افعلي ما تشَائين...

لكن تكلّمي...

لا تهزميني بصمتِك...

لا تجعليني ألحُّ عليكِ بلسانٍ لا يهدأ...

فقط تكلَّمي...

ولا تقتلي روحي بهدوءٍ مُفتَعَل...

سلمى يا وجعَ قلبي...

يا بكري الأول يا قمري...

لا تحزني من ندوبِ جرحك...

ولا تأبهي بالدنيا طالما بقيتُ معكِ...

فوهجُ النورِ سَطَعَ من يديكِ...

وسيُلازِمُني ضياءك حتى مماتي...

من دونكِ قد تموتُ البسمةُ من عروقِ وجهي...

قد أندبُ قدري.... قد أشتكي من ليلي...

فلا تحزني دُميتي... أفيقي ليضحك كوني...

أفيقي صغيرتي...

أفيقي واصرخي...

ولا تهدئي...

قلبها الصغير حمل عبئاً أثقل من الصخر لم تكن لتحتمله، فدقاته تزداد تارةً وتبطئ تارةً أخرى وآلامها تنذر من مصيرٍ مجهولٍ.

وجاء القرار المفاجئ بلزوم إجراء عملية لسلمى، دخلت غرفة العمليات وشُقَّ الصدر وبدأت أصابع الجرّاح تنسج شفاءً لقلبٍ يَصُحُّ أن نسميه قطعةً من رحمة الرحمن هبطت من العرش فاستقرّت في صدرها.

لقد كانت أنامل الأطباء قاسيةً ومشارطهم حادةً ينفر لها الدم، وينفر خارج الغرفة دم على هيئة دموع تسيل على وجنتي مريم، وشاء الرحمن أن يرحم صغيرتنا وكيف لا وقلبها قطعة من رحمة السماء، وأن يرحم مريم فهي أيضاً كملائكة السماء.

في هذه الأجواء، التصقت السماء بالأرض وأسدل الله ستار رحمته فنجت سلمى وأغلق الجرح وانتظم النبض، ولكن عيون مريم مازالت تتبع بالدمع ولكن هذه المرة دمع فرح لا دمع خوف، لقد كانت أجمل هدية منحها الباري عزّ وجلّ لمريم قلب سلمى عاد لتجري فيه الحياة لاهثةً لكلمةٍ واحدةٍ الحمد لله الرحمن الرحيم.

خرجت سلمى من غرفة العمليات وجسدها الطري الصغير يستنجد مريم ويبوح لها بما يعانيه من ألم، ألقت رأسها على صدرها كإنسانٍ متعبٍ وجد راحته، وتنهدت تنهيدةً عميقةً وأغمضت عينيها مستسلمة لنومٍ عميق.

مرت الأيام ولم تهدأ مريم في رعايتها لسلمى حتى استطاعت أن تفتح عينيها لحياةٍ بعيدةٍ عن هاجس المرض الذي جعلها طريحة الفراش فغدت تتنقل كطائرٍ رشقٍ من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى والشمس تغازل بأشعتها الذهبية ريشه فغدا أجمل من ألوان قوس قزح.

الحياة ليست دائماً بحراً رائقاً وشطآن ذهبية بل تهوج العواصف وتثور الرمال.... هذه الجملة كانت تتردد على لسان سلمى في كل لحظة يأس، وفي كل لحظة ألم تألمتها نتيجة مرضها، حيث كانت تتفوه بكلمات تقشعر منها الأبدان فنسمعها تقول: أنا سأكون أنا! سأكون نفسي! لا يمكن أن أكون ذلك الشيء تحت يدي الطبيب الذي سيقصه ويرقعه، أنا لست ذلك الشعور الذي تخدّر، ورغم ما تقوله استسلمت للعملية التي لا مفر منها، و رغم الجراح والآلام فإنّها تعيش حياتها

بشكلٍ طبيعي، تعيش عالمها الخاص، عالم الروايات والرومانسية، عالم الجمال والحب.

أحبت دراسة اللغة الانكليزية فسجلت بعدة معاهد وأصبحت تتقن هذه اللغة كتابةً وقراءةً ومحادثةً أكثر من إتقان الإنكليز لها وشتان بينهما، فسلمى تنطق اللغة بشفتين حارتين وقلبٍ دافئ بينما الإنكليز ينطقونها بشفتين باردتين وقلبٍ جليديّ...

إنّها فتاة شاعرية حساسة منذ صغرها كانت دمية أمها المدللة تعمل على تلبية جميع طلباتها وتوفر لها الراحة الكافية.

فهي شخصية محبوبة توافد لخطبتها الكثير من الشبان لكنها رفضتهم بسبب مرضها، إلى أن جاء رجل من بلدٍ عربي شقيق عن طريق المعارف أراد أن يتزوج من عائلة دمشقية، فانصب الاختيار على سلمى وجاء لرؤيتها وطلب يدها لكن أمها رفضت فهو غريب ويكبرها بسبعة عشر عاماً بينما سلمى كان عمرها لا يتجاوز السبعة عشر عاماً، أما والدها فقد كان فرحاً لوجوده بسبب وضعه المادي الذي يفوق وضع أكبر مليونير في الشام، قائلاً لزوجته: يا مريم هذا الزواج سيكون فاتحة خير علينا، يجب أن لا نضيع هذه الجوهرة التي ستدر علينا الكثير من الأموال، وستتنعمين براحة لم يسبق لك أن شعرت بها

بحياتك كلها!! نظرت إلى مراد قائلة وقد اغرورقت عيناها بالدموع: هل تريدني أن أبيع ابنتي لقاء راحتي أنا؟ لا أقبل بذلك، لكن لا أستطيع قول شيء إن كانت سلمى ترغب بالزواج منه، لها مطلق الحرية باختيار شريك حياتها، أنا لا علاقة لي بذلك أبداً، هرول مراد إلى ابنته ليعرف جوابها، سألها: ما رأيك يا ابنتي بهذا الخطيب أظن أنّه يليق بك وسيمنحك حياة الرفاهية والراحة، ماذا قلت؟!

نظرت إليه نظرة المستاء، تتساءل في نفسها: هل هذا أبي، أم زوج أمي الذي يريد أن يتخلص من ابنة زوجته يريد بيعي لقاء ليرات؟ ثم تنهدت قائلة: أنا لا أريد الزواج بأحد، لأني لن أجد أحداً يرضى بوضعي الذي أنا عليه الآن، قال: لا تقلقي فقد شرحت له حالتك بشكل مفصل، و تفهّم وضعك وبقي متمسكاً برأيه فهو يريدك زوجة، قالت سلمى: لم تفهمني يا أبي؟ أجاب: لا أختار لك إلا الخير، فقالت له والتنهيدة تصدر حارةً مليئةً بالتردد والاستغراب: الذي تريده يا أبي، أنت أعلم مني بمصلحتي.

علت الابتسامة وجه مراد وقال لها: أنت ابنة عاقلة يا سلمى وبارة بوالديك، مبارك عليك زوجك المستقبلي، وذهب يزف الخبر السعيد للعريس.

لا ننكر أنّ عبد الله (العريس) إنساناً جيداً، كريماً يخلق لها كل ما تشير إليه بإصبعها... أحب سلمى بكل جوارحه وهي مع الأيام أحبته، دخلا سوية قفص الزوجية والفرحة غمرت قلبيهما لكن زواجهما لم يتوّج بفرحٍ دائمٍ، مرت الأيام والسنون قضى سنوات زواجه متنقلاً بين بلده وسورية، وبقيت سلمى الزوجة الوفية لزوجها رغم بقائها عذراء لسبب يجهله الجميع، ضجت العائلة لهذا الأمر الخطير، فقد مرت سبع سنوات من عمرها هكذا لا فائدة تُجنى، فاجتمعوا لإيجاد حلٍّ مُرْضٍ، خرجوا بقرار التطليق، وتم الطلاق بعد صراعٍ نفسيٍّ مريرٍ.

دارت الأيام و بقيت سلمى تدرس اللغة الانكليزية فهي تطمح بالسفر لدول أوروبية، بعد فترة ليست بطويلة جاءها عريس آخر يكبر زوجها السابق بعشر سنين ومتزوج ولديه أولاد لكن أولاده يعيشون في كندة وهو يعيش في سورية وزوجته سافرت إلى عالمها الأخير، أراد أن يكوّن أسرة ثانية بعد أن فقد أسرته الأولى، جاء لخطبة سلمى، وكانت في هذه الأيام إنساناً آخر اختلفت عن الإنسان الذي كان بداخلها سابقاً فقد كانت روحاً مرهفة بداخلها بحرٌ من الأفكار والمشاعر المتجددة و المتدفقة دون حدود، هذه المشاعر التي اندثرت مع مضي سبع سنوات من عمرها لم تجد فيها الخير سوى الانتقال من العيش البسيط إلى التحليق في فضاء الغنى.

قَبِلَت سلمى بالعريس الجديد الذي سيحقق حلمها بالسفر إلى أوروبة، تزوجت من خالد الذي كان يعاملها معاملة الأب لابنته فقد كان يحنو عليها ويحبّها حباً لا مثيل له... جاءت الفيزا وتم السفر إلى السويد، عاشت في السويد وكانت أجمل أيام حياتها، أنجبت ابنتين مثل الأقمار المضيئة، فهاتان الابنتان هما النور التي تبصر سلمى من خلالهما حياتها، تربتا تربيةً جميلةً، مؤدبةً، واستمرت حياتها مع عائلتها الصغيرة بحب وفرح، في السويد كانت تقضي أوقاتها بالإضافة إلى عمل المنزل بتدريس الطلاب الأجانب اللغة العربية والقرآن الكريم، أينعت ابنتاها كزهرتي كاردينيا يفوح العطر و الألق منهما، أما الأولى فقد أنهت دراستها الجامعية وهي الآن تعمل بالتدريس، و أما الثانية أنهت دراستها الجامعية أيضاً وخطبت لزميلٍ لها في الجامعة.

صحيح تغربت عن بلدها وتركت والديها وأخوتها لكن حنانها لازال يكبر ويكبر ورغبتها تزداد كل يوم شوقاً لرؤية أمها الحنون التي كانت دائمة الوقوف إلى جنبها حتى وقت سفرها، على الرغم من البعد إلا أنّها كانت ترسل لوالدتها ما تيسّر من مبالغ نقدية تحل فيها ضائقتها المادية، فهي في بلاد الغربة وقلبها معهم، وفكرها معهم، ألا تستحق هذه المرأة المجهولة أن نضرب لها ألف تحية وسلام، فلا قلب كقلبها ولا حنان كحنانها.

إنّ لحظة الحب والوجد مثل لحظة الكشف والإلهام، تتواصل فيها القلوب بلا وساطة، والحياة من دون حب و شعور حياة جافة، والطبيعة من دون رتن موسيقى النبض لا طعم لها.

تنقلت سلمى مع عائلتها من بلدٍ لآخر بغية السياحة والاستجمام، تعرّفت على الطبيعة الغنّاء التي وجدتها داخل الإنسان، في أفكاره ومعتقداته، في عاداته وتقاليده، فالبلاد لا تختلف كثيراً عن بعضها، فالشوارع ضيقة في أماكن ومتسعة في أماكن أخرى وفي بعض الأحياء نظيفة وبعضها الآخر قذرة، وكذلك البيوت بعضها مسقوف والبعض الآخر شكلها كالأكواخ... فاختلاف الأماكن لا يهم وإنما اختلاف الناس هو الذي يعني أكثر لأننا نعاشر الناس لا نعاشر الجدران.

لكن رغم ذلك يبقى قلبها الضعيف متعلق بعائلتها وأمها و أبيها فهي بارة بوالديها محسنة لهما محبة للجميع...

ليلـــــى

توقّـــــدٌ وإنجـــــاز

وبلغَ الفؤادُ بأنّه في ليلَى مُغرَم . . .

ومن كِبريائِها تكمنُ العِبَر . . .

شقراء . . . على ضِفافِها تتوهجُ القِيَم . . .

ومن سحرِ عَينَيها يولَدُ الغزَل . . .

تجتازُ بغرورِها عرف الصمت . . .

كأنّهَا أُنثى خُلِقَتْ من رحيقِ الزهر . . .

من خاصرةِ الكرَامَة وُلِدَت . . .

وعاشَتْ عمرَها متوّجة بالفخر . . .

تلك الزهرة البيضاء أثمَرتْ . . .

وأنجبَتْ للدنيا قطراتٍ من نَدى العمر . . .

ليلى . . . لم تمنَحها الدنيا عرفَانَها . . .

لأنّ القدر أقسَم بأن يقتصّ من غرورِها . . .

لينتشلَ قلبها من كيانِها . . .

قد غادَرَها جاثياً . . . واختصرَ بكلمتَين وداعَها :

أوصيكِ برِحلتي ليلى . . . وأوصيكِ بأشبالِها . . .

أشعر بأنّ الغرور فضيلة، هذا التعبير كانت سمة ملاصقة لسمات ليلى الفتاة البيضاء ذات الشعر الأشقر الطويل الذي يتجاوز حدود الظهر بكثير وذات القد الميّاس، والغرور التي كانت عليه جعلها تترك المدرسة للمعلمة التي أهانتها بكلمة فظة، وبعدها فضّلت المكوث في المنزل، تنظّف وتطبخ وتكوي على أن تجعل من كرامتها محطة للإهانات ومن شخصيتها جسراً للوصول إلى ما تبتغيه المعلمة، طبعاً هذا الكلام لا يقتصر على المعلمة فقط بل على جميع الناس التي كانت تعاشرهم، فهي ليلى وما أدراك مَنْ هي ليلى!!!.

تابعت دراسة الثانوية العامة بمفردها ونجحت نجاحاً عادياً.

كانت ترى أنّ كل إنسان يتميز بشخصية محددة مثل بصمة الإصبع لا يشاركه بها أحد، فلا يجب أن يتعدى أحدهم على فكر وآراء الآخر ليظهر نفسه على حسابه، وأنّ الشخصية الإنسانية خاصة بصاحبها، غير قابلة للتعميم...

بعد أن أخذت الثانوية العامة قضت أيامها ترعى أخوتها الصغار وتشرف على أمور المنزل وتساعد والدتها في إعداد الطعام وفي حياكة الثياب أحياناً، حتى أصبحت ربة منزل ممتازة لا ينقصها شيء، إلا أنّ غرورها لم يقتصر على الأقرباء و الغرباء بل تعدى ذلك إلى أقرب الأقرباء وهم أخوتها الصغار الذين لم يسلموا من نفسيتها المتأنفة...

فقد كانت تتعامل معهم بشيءٍ من التعالي جعلتهم ينفرون خوفاً كلما نظرت إليهم أو تفوهت بكلمة، على الرغم من أنّها قد تقضي بعض

الأوقات معهم في جوٍّ من المرح والتسلية... عندما تنظر إليها يخال لك أنّها شخص آخر غير التي نتكلم عنها الآن.

مرت الأيام وفُتِحَ باب النصيب الذي رمى إليها شاباً وسيماً أسمراً ذا هيبة وطلة بهية والأهم من ذلك أنّه ثري، فهذا هو المطلب، جاء يسعى بيديه وقدميه، ولسان كبريائها يقول: هذا هو الشخص الذي أشمخ به بين الناس، لا مثل أولئك البسطاء الذين تطاولوا لامتلاك جوهرةٍ مثلي، فليست جميع الأيدي صالحةً لاقتناء المجوهرات!!!

وبدأ تبعاً للعرف الدارج فعندما يأتي عريس لطلب يد فتاة لا بد من السؤال عنه، وبعد التنقيب والبحث والتدقيق أجمعوا على أنّه شاب جيد لا شائبة تشوبه وينحدر من عائلة راقية، وبعد الاطمئنان أن لا غبار عليه، تمت الخطبة على صهيب، وعاشت أيام الخطبة بفرح غامر، وسرعان ما حان وقت الزفاف، فأقلعت سفينتهما برياح طيبة عليلة هادئة رزينة، وتنعّمت بأيامها معشوقةً مدللةً، تتقلب بحياة الرفاهية التي تحلم بها كل فتاة.

أنجبت ليلى ثلاثة صبية وابنة واحدة، ربتهم أحسن تربية واعتنت بهم أفضل اعتناء نشؤوا في بيتٍ يسوده الحب والوئام، متكاتفين متعاونين، لا يستطيع أن يفرق بينهم أحد...

ومرت السنون وأصبح عمر الابن الأكبر رافي الثامنة عشر، وهو كشجرة النخيل الفارعة والتي تحمل من الثمار ما لذ وطاب، أما عفراء فكانت تصغره بعامٍ واحدٍ وهي كالفل الأبيض الذي استسلم لنسيمات الربيع، وأما الثالث نضال فكان يصغر أخته بثلاث سنوات وتخاله

كغوطةٍ غنّاء يهديك أجمل الألوان وأنضج الثمار، أما آخر العنقود زين الدين فكان بحدود الأربع أو خمس سنوات ورغم صغر سنه تجده كالسيف الصارم في وجه مَنْ يتمنى له أو لأسرته أي أذى.

بقيت هذه العائلة في توادها وتعاضدها، في حبها ووئامها، ولكن كل ذي نعمةٍ محسودٍ، فأعين البشر لا تترك الناس بطمأنينةٍ واستقرارٍ ولا سيما أنّ ليلى رائعة بشكلٍ ملفتٍ للنظر وأولادها متفوقون لامعون وصهيب عاطفيٌّ رقيقٌ، كثيراً ما غامر باستقراره في سبيل رفاهيتهم فكان يبالغ في عمله وجهده ومجازفاته ليحقق لفلذات كبده ومعشوقته ليلى الرفاهية التي يستحقونها.

وبدأ المرض يتسلل بمكرٍ وتدرّجٍ كثعلبٍ خبيثٍ يمشي على رؤوس أصابعه ليفترس ضحيته.

تغيّر صهيب كثيراً، وأصبح هزيلاً، يقضي الليل متألماً، لا أنيس يؤنسه ولا سامر يسليه...

ففي ليلةٍ باردةٍ والريح قد فقدت صوابها تصفع مَنْ تقابله وتكسر من يقف في وجه غضبها، نادى ليلى وقال لها: اجلسي معي، فكم أنا مشتاقٌ لدفئك، وأرادت ليلى أن تشكو له أهله فكثيراً ما قَسَوا عليها، فأجابها: لا وقت للشكوى الآن، فقط اجلسي معي وحدثيني كما كنت تحدثيني من قبل.

وقضيا الليل يتحدثان ويتسامران إلى أن انشق الفجر وقاما للصلاة، انتهت ليلى من الصلاة ولا زال صهيب على سجادته، أخبرته بأنّها ستسبقه للنوم، قال لها: اقتربي قليلاً، اقتربت فلامست أنفاسه الحارة

وجنتيها الحالمتين، وألصق شفتيه يهمس في أذنها: أوصيك بليلى وأشبالها، فسرت قشعريرة من دفء شفتيه مارةً بكامل جسدها...

وأوت إلى مخدعها ولم يبرح سجادة الصلاة...

استيقظ الجميع صباحاً فإذا بصهيب مازال مستلقياً مكانه لم يتحرك، فهمّت بإيقاظه لكنّه لا يجيب، حاولت إيقاظه مراراً... أيضاً لا يجيب، فَزعت، أمسكت يده فإذا هي باردة لا حياة فيها، ارتجفت وبدأ العرق ينحدر من جبهتها على الرغم من برد الشتاء، لم تكد قدماها تحملانها. لقد مات صهيب... انفجرت الدموع وارتفع النحيب، لقد أدركت عندما قبّلها أنّها قبلة الوداع.

كم كان محباً... أبى أن يودع الدنيا إلا بقبلةٍ حارةٍ وهمسةٍ دافئةٍ من خد معشوقته وأذنها، فقد كان آخر عهد شفتيه ملامسة وجهها... وآخر عهدٍ بكفه الاستقرار بين راحتيها... وآخر كلمتين خرجتا من ثغره ليلى وأشبالي.

دُفِن صهيب ودُفِنت معه آلامه وذكرياته، وبدأت معركة ليلى في هذه الحياة مع أولادها، أخذ رافي الثانوية التجارية لكنه لم يستطع متابعة دراسته بسبب وفاة والده فحصل على عمل محاسب في مدرسة خاصة ليساهم برفع العبء عن كاهل أمه.

تحولت حياتهم من الرفاهية إلى التقشف، رأت ليلى أنّ راتب ابنها لن يكفي مصروف المنزل ومصروف أخوته الدراسية، فبحثت عن عمل يناسبها لتسد الرمق، وعاشوا حياتهم إلى أن كَبُرَ نضال وأصبح يدرس اللُّغة العربية في الجامعة وهو الآن يعمل أيضاً ليصرف على نفسه

ويساهم قدر المستطاع في النفقة، أما عفراء فقد أنهت دراستها في المكتبات والمعلومات ووجدت عملاً مكتبياً لتصرف على نفسها وهي ترغب بمتابعة دراستها، و زين الدين فهو الولد الأخير الذي يحق عليه لقب اليتم فقد كان عمره الخمس سنوات عندما توفي والده، وهو الآن حصل على الثانوية العامة وسيتابع دراسته.

الحمدلله أصبحت حياتهم أفضل، واستطاعوا أن يقفوا على أقدامهم بثبات، لكن فرحتهم لم تتم.... ففي الظروف الراهنة التي تمر بها البلد اضطرت ليلى أن تترك منزلها مع أولادها لتستأجر منزلاً آخر في منطقة بعيدة عن المشاكل التي تعانيها منطقتها، فأضيف إلى مصروف المنزل أجرته أيضاً، وهُجِر منزلها وأصبح مرتعاً للجرذان والفئران والعناكب وأصبح أثاثها في متناول صاحب النصيب مَن يأتي أولاً يكسب أولاً ومَن يأتي آخراً يخرج صفر اليدين.

في ظل هذه الظروف لم يتوقف دعم مريم لابنتها ولأولادها، لم تبخل في أن تقدم لهم ما تستطيع، مما ساعد ببقاء ليلى واقفة على قدميها بثبات، كشجرة التوت الصامدة المتجذّرة في الأعماق لاتهزّها ريح ولا تزعزها فؤوس الحياة.

زبيـــــــــــدة

أمـــواج متلاطمـــة

اختارَتْ بنظريةِ الوجودِ التنقيبَ بينَ التضاريس...

تهوَى العزفَ على خارطةِ المُدُنِ العريقة...

تنشدُ أغانِيها بطَلَبِ العُلا...

وتكتَسي بثوبِ المَعرِفة رغبةً وطوَاعِية...

تخالها قمراً بينَ النجُوم ترعرع...

فشُمُوخها العظيم ليس بقضيّةٍ نسبيّة...

إنّه أُسلوبُ حياة... وتكرار لقِيَم زُرِعَتْ فيها...

ذاك القمر... حبكتْ له الأدوار غُربةً قاسية...

ليتوهّجَ في بلدٍ لا يعيشُ ضجيجَ حربٍ خانِقة...

أنا أتكلّم إذاً أنا موجود، هذه نظرة زبيدة في الحياة، إنّها الشخصية القوية الناضجة التي تَغلِب ولا تُغلَب، تُخضِع ولا تَخضع، الأنفة عندها هي التي تتكلم، وهي التي ترسم لها الطريق في حياتها، على الرغم من أنّ الأنفة تجعلها تتراجع إلى الخلف بدلاً من تقدّمها إلى الأمام في بعض الأحيان.

أخذت زبيدة الثانوية العامة، وتابعت دراستها الجامعية بعد حض والدتها على ذلك، فأختاها الكبيرتان لم تتابعا دراستهما لأسبابٍ ذكرت آنفاً، وعليها أن تتابع دراستها في الجامعة علها تجد طريقاً أفضل من طريق أختيها، سجلت في الجامعة ودرست مادة الجغرافية، قضت خمس سنوات أو أكثر في الدراسة جعلت الهم يتسلل إلى صدر أمها التي كانت قد سجلتها على عاتقها فوالدها لم يكن راضٍ عن دخولها الجامعة.

زبيدة اجتماعية من الطراز الأول وذات شخصية بارزة بين زملائها فلم تترك حفلاً إلا وشاركت فيه، ولم تترك مطعماً إلا وذهبت إليه، ولم تعاشر إلا من يفوقها ثراءً فتضطر لإنفاق الكثير من المال لتجعل من أنفتها شامخة الرأس أمام صديقاتها الأثرياء، ولِمَ لا وهي تتميز عليهن بذكائها وسعة أفقها؟

والعنصر المشحون في هذه الحالة هي مريم.

ولكن مما زاد الأمر تعقيداً أنّ أنفة زبيدة أصبحت تكبر وتترعرع أكثر وأكثر بعد أن تخرجت من الجامعة وحصلت على الشهادة الجامعية،

أنا زبيدة التي حصلت على الشهادة الجامعية والتي لم تستطع أختاي الكبيرتان الحصول عليها.

أنا زبيدة التي ستجد عملاً يلائمني ويلائم شهادتي، أنا وأنا وأنا ..... وتتتالى الأنفة عندها.

عملت زبيدة بمهنة التدريس مدة 8 سنوات، تنقلت خلالها بين مدارس إعدادية وثانوية وهي تتذمّر من عملها ومن الطرقات والمواصلات وتتذمر من حظها الذي لم يسعفها وووووو.

ولكن التفاني لديها تجاه أهلها كامن يظهر تارةً ويخبو تارةً.. فكم ساهمت في العناية بأبيها حين مرضه فكانت تقص عليه القصص فتملأ نفسه مرحاً ولا سيما أنه طريح الفراش لا يغادر البيت.. فهذا النبل جعلها تنال حظها من رضاه الذي يعتبر من رضا الله تعالى.

و بدأت الظروف التي مرت بها البلد وزاد الطين بِلة أن هذه الظروف جعل نشاطها يتجمد في مهنة التدريس وبقيت في المنزل مدة ثلاث سنوات ومازالت أنفتها تلعب دورها في حياتها، لكن هذه المرة لم تجعلها تتقدم نحو الأمام إنما جعلها تتراجع رويداً رويداً للوراء، وبدأت تعيش حالة الصراع بينها وبين نفسها، وحالتها النفسية تتراجع للخلف، حتى اختارت طريقها بنفسها فقررت أن تذهب إلى لبنان وتعيش هناك ريثما تهدأ الأوضاع في سوريا فتعود، أو إن حصلت على عمل في لبنان تبقى هناك....

شفاء

نبضٌ حارٌّ

ملاكٌ بثوبِ الرحمة... بزيِّها الأبيض المصنَّف بالنقاء...

تستقلُّ مركبَ الرأفة... لتحني ببلسَمِها وتمنحَ الدواء...

بينها وبين الرقة... تواطؤٌ رحيم... وفي راحة كفَّيها شفاءٌ لكلِّ سقيم...

فلكلِّ امرئ على وجهِ الأرضِ من اسمه نصيب...

ويا لكرَمِ السماء بهذه الهبة...

تسقي ورودَ الخيرِ بضحكةٍ من الصميم...

ترقصُ بضحكتَها حتى الهزيعِ الأخير من الليل...

تلك الشفاء... رواية من خيرٍ وعطاء...

مثلها قليلٌ وقليل...

وعندها تستقرُّ الراحةُ والعيشُ الرغيد...

أشفق على أخوتي وعلى كل إنسانٍ بحاجة للرحمة والحب والمساعدة، هذه أخلاقها، وهذا جل تفكيرها، لا تفكر بنفسها قدر تفكيرها بالآخرين وخاصةً التفكير بأمّها، شفاء فتاة شفوق، حنون، تحب أن تمد يد العون والمساعدة للجميع، درست الثانوية العامة وتقدمت للمفاضلة وتم قبولها في المعهد المتوسط الطبي، درست في المعهد مدة سنتين وتقدمت بأوراقها لإحدى المشافي الخاصة التي كانت قد فتحت باب التوظيف للخريجين حيث تم قبولها كممرضة في المشفى.

لم تكن ترغب في الدراسة بالمعهد الطبي بل كان اهتمامها أن تدرس اللغة الفرنسية إلا أنّ إحدى صديقاتها أخبرتها بأنها ستسجل بالمعهد وهذا الفرع له مستقبل رائع فما المانع أن تسجلي به أنت أيضاً نكن سويةً أنا وأنت؟

اقتنعت شفاء بالفكرة وهرعت بوضع الرغبة الأولى في المفاضلة وهو المعهد المتوسط الطبي ثم وضعت باقي الفروع، صدرت النتائج و تم قبولها بالمعهد وباشرت بالدوام الفعلي، لكنها تفاجأت بأمرٍ أزعجها قليلاً فقد سألت عن صديقتها التي شجعتها بالتسجيل بالمعهد فعلمت أنها سجلت في قسم اللغة الفرنسية هذا الفرع الذي كانت ترغب به، لكن نصيبها أن تصبح ممرضة في إحدى المستشفيات، وإني أرى بأن مهنتها هي التي اختارت شفاء وليست شفاء من اختارت مهنتها، فمهنة التمريض بحاجة لقلبٍ يبتعد عن القسوة ويقترب من الحب والحنو على المرضى المحتاجين لملاك يضمد جراحهم ويشفي آلامهم.

شفاء فتاة هادئة، ناعمة، بيضاء بياض الثلج، يستحيل بياضها ورد ياً حين تخجل أو تفرح أو تغضب، الحركة التي تقوم بها عندما تتحدث مع نفسها وتشعر بالانفعال هي أن تجمع كفيها مع بعضهما وتشدهما إلى جيدها تعبيراً عن انشغالها بأمرٍ تفكر به في مخيلتها، يدها البيضاء امتدت لتساعد الكثيرين، بالإضافة إلى اهتمامها بمساعدة والدها ووالدتها في مصروف المنزل، فهي الابنة الأولى في هذه العائلة التي حصلت على عملٍ مناسبٍ وراتبٍ ثابتٍ جعلها تسهم في المساعدة بالمصروف.

تصغر أختها زبيدة بعامٍ فقط لكن الناظر لكلا الأختين يجد بوناً شاسعاً بينهما، فزبيدة عصبية، مغرورة، لا تهتم بمساعدة أحد، لكن لديها طيبة مبطنة، أما شفاء فهادئة، متواضعة، تهتم بالآخر، تفكر بطيبة، مخلصة، حتى أنها لا تهتم بنفسها بل تشتري لنفسها أرخص مما تقدمه لأخوتها، ليس بخلاً بل لتوفر ثمنه من أجل شراء أشياء تفيد المنزل.

تقدّم لها الكثير لخطبتها، فهي لم تتفق مع أحدهم بسبب متطلباتهم التي لم ترض بها أبداً وبسبب أنانيتهم واستغلالهم لها، فقررت الحفاظ على عذريتها والاهتمام بأبيها الذي أصبح في عمرٍ حرجٍ ويعاني من مرضٍ في الرأس جعله طريح الفراش، والاهتمام بوالدتها التي أصبحت تعاني من عدة أمراض نتيجة تراكمات من تعب وإرهاق وحزن وخوف وتصدي لمشاكل لا حلول لها ونفسياتٍ مريضة وووووو.

ففي الصباح إبرة الأنسولين تقدم لها تحية الصباح و تقول لها صباح الأنسولين، أما في الظهر فتلاحقها أدوية الضغط وتميّع الدم

والمسكنات بشتى أنواعها، أما ليلاً فتمسي طريحة الفراش نتيجة المسكن الثقيل العيار التي تأخذه حتى تستطيع النوم بعد تعب يوم طويل وألم في مفاصلها الرقيقة وجسدها المنهك.

إذاً، فقد كان اهتمام شفاء بعائلتها منذ الصغر وأصبح هذا الاهتمام يزداد رويداً رويداً حتى أصبحت هي الراعي والمعين الأول والأخير لهم بعد الله عز وجل.

وجهها الذي يشع نوراً هو دليل على رضا الله ورضا والديها عليها، بالإضافة إلى أعمالها الحسنة فهي ماقطعت فرض صلاة أو صوم وما قطعت قراءة القرآن يوماً، وأصبح جل اهتمامها أن تحج إلى بيت الله الحرام، فدعاؤها الوحيد أن تذهب إلى مكة المكرمة وتكحل عينيها برؤية الكعبة المباركة.

مراد مرض مرضاً شديداً دام مرضه قرابة العشر سنوات وأحد عشر شهراً، خلال مرضه كانت هي التي تقوم على رعايته والاهتمام به وذلك بعد أن تأتي من عملها تنفرد به، وتقدم له الدواء وتحكي له الحكايات فكان لسانه لا يتفوه إلا بكلمة (الله يرضى عليك).

يوم الجمعة في السابع والعشرين من حزيران اشتد مرض مراد وكانت شفاء بجواره تقوم بكل ما تستطيع عمله لكنّها وجدت أنّ الأمر يحتاج لطبيب يكشف عن حالته، بعد أن فحصه الطبيب أمر بوضع سيروم بيده ليعوض ما خسره جسمه، لكن الإبرة لم تستقر في العرق وكأنّ العرق يخبر الممرض المرافق أن لا تضع الإبرة فقد حان الموعد، لا

ترهق نفسك وترهقه، فقد حان الموعد، لا تتعب روحه التي تنتظر الأمر الإلهي لأنّه حان الموعد.

حاول مراراً وتكراراً لكن لا فائدة تُجنى، كانت مريم واقفة بجانبه تحدثه وتقول له: هيا يامراد، قوّي نفسك حتى نسهر سويةً اليوم هيا أرجوك، وهو ينظر إليها بنظرات المسافر الذي يودع محبوبته دون لقاء، اضطربت حركته و بهت لون عينيه وهو لايزال ينظر إلى مريم وكأنّه يتوسّل إليها أن تخرج من الغرفة حتى تصعد روحه دون أن تجرح مريم أو تحزنها.

نتيجة خبرة الطبيب الطويلة فهم أنّه لا بد لمريم أن تخرج من الغرفة، فقال لها: سيدتي هل لك أن تخرجي قليلاً فإني أراك متعبة وعليك الارتياح؟

ما إن خرجت مريم من غرفة مراد حتى شعر بتسارع شديد بنبضات قلبه وتضاعفت اهتزازات روحه صاعدةً مع الملائكة إلى السماء تاركةً هذه الدنيا الفانية مبتهجةً بلقاء ربها.

توفي مراد بعد صراعه مع المرض قرابة اثنا عشر عاماً وكانت ممرضته شفاء التي عاشت كل لحظة ألم وكل لحظة فرح مع أبيها، تجلس في غرفته التي ترى فيها خيالات والدها فهو يحدثها وتسمعه، يُهيّأ إليها أنّه يطلب منها كأساً من الماء، يناديها فتركض إليه لكنها تصحو من حلمها وترى نفسها بين عددٍ من الجدران التي تُنقَش عليها كل لحظة عاشتها شفاء مع والدها في سنوات مرضه، فتجلس على الأريكة وتذرف دموعها البريئة، فهي لا تريد أن تصدق أن والدها توفي

فقد ترى أن الحقيقة تجعل من الواقع كابوساً يجثم على صدرها وهي لا تريد أن تصدق هذه الحقيقة، لكنها إنسانة مؤمنة بالله ومؤمنة بالموت والموت كأس لكل إنسان لا بد أن يشرب منه.

استمرت حياة شفاء كما كانت لا تغيّر فيها، اكتشفت أنّ الحياة سيمفونية يعزفها الإنسان لنفسه وللناس وينام على أنغامها كل يوم، وسيمفونية يعزفها المريض متمنياً أن يعيش حياةً طبيعيةً كحياة الناس الطبيعيين، ينامون على أمل الشفاء ويستيقظون على نفس الأمل، واكتشفت أنّ عملها ماهو إلا واجب روحي منحها الله إياه لتنشر رحمتها وتكون ملاكاً من ملائكة الرحمة.

بيسان

عزفٌ منفردٌ

تستسلمُ الخيوطُ بين أصابعِها . . .
تنحني أمامَ عظيمِ صنعَتِها . . .
بيسان . . . كعليلِ الربيعِ في نَيسان . . .
تتنهد فناً . . . تشعُ ألقاً . . .
تجتازُ بلاءَها بالأمل . . .
بنضرةٍ يقرعُ أبوابَ السماء . . .
على ثغرِها الرقيقِ تنمو الضحكات . . .
بسعيها الدؤوب تزولُ العقبات . . .
بيسان . . . نسيمٌ من ليلٍ هادئ . . .
بصيصُ نورٍ من فجرٍ قادم . . .
وأوتارُ ألحانِ المطرِ الهادر . . .
فمعها يزولُ السقَم . . . تختفي المِحَن . . .
تكذبُهم حين يقولون بأنَه عَزَمَ على الرحيل وغاب . . .
استقلَّ قطارَ الموتِ السريع . . .
ومضى إلى قدَرِه الأخير . . .
تعتلي صخباً . . . تنتفض قلقاً . . . لتحدثهم . . .
كيف يغدو غائباً . . .

وأنا أسمعُ قرْعَ نبضِهِ يدوي في كلِّ مكان...

ساكن بين أَضْلُعِ قلبي... ومن هواهُ تتجرَّعُ روحِي بالأنفاس

وعن أعتابِهِ تحلُو العمرَ متزيِّناً بالهناء...

لا تقولوا بأنَّه امتَهَن الغياب... كيف تَقْوون على الاحتيال؟

فمهما اختلَّت ساعاتُ اللِّقاء...

وباعدَتْ بيني وبينه المُدُن والمسافات...

سيبقى طَيفُهُ يبعث الشفاءَ في وعْكَتي...

لا يزال يضخُّ في أوردَتي...

سيبقى حاضراً ما حييت...

حتّى لحظة الفناء......

شخصية متقلبة، تارةً تجدها مليئة بطيبة لا مثيل لها، وتارةً تجد هالةً من الشك وعدم الطمأنينة تحيط بقلبها تجاه الآخرين، تارةً تراها صادقة وتارةً تحيك قصصاً من مخيلتها لتصل إلى مبتغاها، هذه شخصية بيسان الابنة الخامسة لمريم، وهي ذات حظٍ سيّئ لم تهنأ بحياتها أبداً، كانت منذ الصغر منطوية على نفسها ويصيبها حبسة عندما تتفوه بالكلام، وهذه الحبسة جعلها تتراجع في دراستها لذلك نصحت مديرة المدرسة مريم أن تخرج بيسان من المدرسة وتضعها في مهنة تستفاد منها مادياً وعملياً، فعملت بنصيحة المديرة ووضعتها في الاتحاد العام النسائي لتتعلم الأعمال اليدوية، فأتقنت عمل الصوف والرسم على القماش والرسم على الزجاج أيضاً، لكن المهنة التي اتقنتها جيداً وأصبحت مصدر رزقها، هي حياكة الثياب، وأمضت بيسان حياتها في العمل بالحياكة وأصبح لديها زبائن من جميع الأطياف، ومرت السنون وأصبحت بيسان أفضل حائكة في المنطقة، ولكنّنا نظلمها حين نقول حائكة فقد كانت رسّامة تصنع القماش وكأنّها ترسم لوحةً مائيةً ألوانها مأخوذةٌ من بياض و حمرة الأفق.

ولعلك تنجذب إذا ما رأيت أصابعها البيضاء وكفيها الساحرتين تتمايل، وقطعة القماش مستسلمة بين أصابعها كاستسلام العاشق بين ذراعي معشوقته.

فقد كان منظرها فتنةً حقيقيةً لكل مَنْ يرى.

ظنت مريم أنّ الحالة المرضية التي تعرّضت لها سلمى في حياتها هي حالة نادرة في العائلة، ولم تكن تعلم أنّ يد المرض امتدت لتطال قلب

بيسان الرقيق أيضاً، فأجبرتها للامتثال تحت أضواء غرفة العمليات و مباضع الجرّاحين ترسم لوحاتٍ تشكيلية بألوانٍ مبعثرة في جسدها الغض.

تعبت مريم، خارت قواها، ضعفت تنهيداتها الحارة، وأصبحت ترنو بنظرها الحزين إلى ابنتها المنهكة، وقلبها يرتفع بالدعاء لله الكريم بأن ينجي ابنتها من اخطبوط قد استوطن في قلبها.

على الرغم من خطورة الأمر تجد بيسان تتمتع بروح مرحة وأمل كبير بأنّ الله سينجيها ويشفيها، فتجدها عندما ذهبت للمشفى لإجراء العملية كانت قد جلست على السرير بمفردها وتحدثت مع الممرضات بكل ارتياح وتفوهت بدعابات لطيفة معهن والابتسامة العريضة لا تفارق وجهها الذي يخفي تحسّباً للنتيجة المرتقبة.

بدأ العد التنازلي لانتهاء العملية، فُتِحَ باب الغرفة، أُخرِج السرير يدفعه ممرّضٌ وقد ارتسمت على وجهه علامات التعب الممزوجة بالفرح، فقد نجت بيسان ونجحت العملية، وكُتِبَ لها عمر آخر استطاعت أن تعيشه بشكله الطبيعي وكما خطه الله لها.

توالت السنون قضت أيامها بين المنزل والعمل والتردد إلى الصديقات، إلى أن دق باب النصيب بابها وجاءها أنور الذي طلب يدها بعد أن رآها عند صديقتها في أحد الأيام فهو يكون لصديقتها ابن خالها، فسرقت قلبه وهيمنت على كل خليةٍ في كيانه وشعر أنّه ظَمِئٌ للماء منذ ثلاثين عاماً حتى أصاب اليوم ينبوعاً زلالاً ماؤه أبيض فرغب أن يضع شفتيه ويشرب ثلاثين عاماً أخرى.

أسرع لخطبتها و تم الزواج وعاشا معاً أروع سنوات العمر.

بدأت الأحداث المريرة تجتاح نواحي ومناطق سوريا، وبدأت بحار الدماء تنهمر على شوارع ومنازل السوريين الآمنين ومنهم بيت بيسان الذي جرفته أيدي الإرهاب الذي اجتاح بلدنا الحبيب وأصبح في غياهب المجهول، ليس هذا فحسب وإنما جرف معه زوجها وشريك حياتها الذي لم يظهر إلى الآن ولا يعرف أين مكانه، وهي تجوب كل مكان للسؤال عنه والتعرف عن أحواله، لكن لا حياة لمن تنادي، حظها العاثر ربما هو الذي ساقها لهذا الحال، لم تهنأ كثيراً حتى جاءها خبر اختفاء زوجها.

كانت وزوجها عاشقين يحسدهما كل من يفتقر للحب..

يهمس في أذنها بكلماتٍ كالنسيم تداعب عواطفها الرقيقة وروحها المسحورة.. يمسك بيدها ليشعرها بالأمان...

أسكنها قلبه الذي يضخ رقةً وحنيناً ولين...

هذا هو أنور، شعاع أنار حياتها وأضاء حلكة الملل الذي سرى في أيامها.

لكن قدرها أبى إلّا أن يفرّق بينهما و شاء أن تعيش حياتها على أمل اللقاء به مجدداً.

أُخبِرَت بأنّه رحل إلى العالم الآخر وطافت القرائن لتثبت رحيله ولكنّ عشقها أبى وتمرّد فلم تصدّق ومازالت حتى اليوم ونسمات الأمل تداعب شغاف قلبها بلقاء العشيق، الكل يقول إنّه رحل، وهي تكذّبهم

جميعاً فكيف يرحل من قلبها وهو ساكنٌ فيه منذ عشر سنوات طالما أنّ نبضها يضخ دماً فأنور يضخ حياةً وهي تنتظر....

اختارت الهروب إلى لبنان فكل شجرٍ وحجرٍ وركنٍ ونافذةٍ تراه تطل منه عيون أنور فتجد دموعها وقد سالت فبللت وجنتيها الناعمتين.

انغمست بالحياكة لتقتل الزمن فهو يمرّ بمرارةٍ وبطءٍ شديدين، وهي الآن ما تزال هناك تعيش مع أخيها وأسرته، وأملها بالله بأنّ يوماً ما سيأتي وستلتقي بعشيقها وشريك دربها من جديد فكلما انبثقت الشمس من محيط الظلام انبثق في صدرها شمس أملٍ جديد، وكلما أطل القمر من بين غمرات السواد بوجهه الناصع صوّبت عيناها الكبيرتان ذات الرمشين المعكوفين إلى وجه القمر تتفرّس فيه موعد رجوع أنور.

محمـــــــد

ســـخط وتمـــــرُّد

أياً كان يملكُ من الوصف...

فهو بكلِ تأكيدٍ إكسيرُ الحياة...

والحبُ له.. معطاءٌ يُمنَح على الدوام...

عند وُصولِه صارخاً معلناً استنشاقه أُولَى الأنفاس...

بكت مريم على جبينه... كيف لا وقد جاءت أخيراً الهبات...

بكت من عنائها... وتراءى في ذاكرتها ما منَحُوها من تذمّرٍ وإذلال...

وها قد جاءَ... وعلى صدرِه سلسلة يتقلَّدها رموزُ عائلة أبيه...

ومع ولادتِه... نشأت قوانينُ فُصلت على مقياس الأُمَراء...

محرَّمٌ على أحد بأن يَمسّه بسوءٍ... بفعلٍ كان أو حتى كَلِمات...

وشاءَت في محيطِه الأعراف... بأنْ يلبسَ تاجَ الذُكورةِ وتحكُمَ بمفاهيمَ خَرْقاء...

ويا لهُ من مُجتمعٍ شرقيٍ أبْلَه... يمجّدِ الفتية...

ويقصي الفتاة من معظم مَحافِل الحياة...

وهل تجرُؤُ أحدٌ على التمادي في وجهِ السلطان؟

وسَخَطه مُعلن بجُرأَةٍ دون كتمان...

يغيبُ عن دارِه كما تحلُو له...

ويعبثُ بعجلةِ الانتِظار كما يشاء...

فهذه كانت أحكامه... عشقٌ للسفرِ والترْحَال...

ومريمُ تَئِنُّ بروحِها...

تندبُ قربَ موقِدِها بقَايا ذِكْراه...

ومرت الأيام وشبّ محمد وقد رضع منذ طفولته لبان التمييز وكيف لا؟ أَوَلَيس هو الذكر بعد خمس بنات أَوَ لَسنا في مجتمعٍ ذكوريٍّ فغدا متمرّداً منطلقاً كالصاروخ لا يهدأ، شديد العنفوان، بعيد عن الاستقرار لا يبالي كثيراً بأعراف المجتمع، فالتمرّد سمة أساسية لشخصيته وسبحان الله كل المدللين متمردين.

كان يصادق دون أن يسمح لأحدٍ بمشاركته في اختياراته، يغيب عن البيت طويلاً فأصدقاؤه يحتلون المقام الأول ثم يأتي الأهل والأخوة ونتيجةً لانطلاقته وكثرة حركته اهتمّ بالدراسات الحرفية فتخرّج من معهد تقنيات وماج به البحر ارتفاعاً وانخفاضاً فانتقل من بلدٍ عربيٍّ إلى بلدٍ عربيٍّ آخر إلى أن استقر مركبه في لبنان بعد أن عشق جزائريةً فتزوجها.

لم يرغب بأولادٍ تكبّله فالقيود في أقدام الطائر كريهةً عليه ولكنّ المرأة، ولا يخفاك ما المرأة، ألزمته بولدٍ، فكان مراد إحياءً لذكرى أبيه وتخليداً لاسم جدّه...

عشق الطيران دون كوابح وطافت به الأيام في بيروت وتعلقت عيناه الحالمتان بالتحليق ولكنّ هذه المرة جعل القارة وراء ظهره، فكان الهدف

الجزائر موطن الحبيبة فلعله يُرزَق في بلادٍ دَمَجَ ذكورته بحسناء من تربتها، هنا يتخلّق المسك من الطين، أميرةٌ معجونةٌ بالمسك والعقيق، فحيث ينبت العشق تنال الأرزاق.

ولكنّه ترك جرحاً إضافيّاً في قلب العذراء مريم.

لقد زاد على جفوته داخل الوطن غربةً خارج القارة وكيف لا تتألّم وقد أرضعته بدموع عينيها، وعاشت لهم ومازالت تتنفّس بهوائهم.

مسكينٌ غافلٌ مَنْ يظنّ أنّ الحبل السري الذي يمدّ الجنين بالغذاء والهواء ينقطع بعد الولادة، فالأمومة ما تزال ولا تفتر تضخّ حبّاً وعشقاً وخوفاً وأملاً ورجاءً لأجنّتها، سواءً كانوا في رحمها أم انتقلوا إلى صدرها، فهم دائماً في جوف أحشائها عَلِمَ الأبناء ذلك أم جَهِلوا.

أحمـــــــد

حـــبٌّ حالـــمٌ

قائدُ السيمفونيّات بألحانٍ عذبة...

مبهر بعاطفةِ الشعراء...

يدعوك لتُشاركَه كرنفالَ الحبّ... بِطلّةٍ دافئةٍ تظهر على مُحيّاه...

تلمحُ الوفاءَ من عينَيه...

وفي وجهِه خارطة لوطنٍ تهواه كلُّ حسناء...

في حضرته... شعاعُ القمرِ قد انْدثر...

ونجمٌ من السماءِ تاه عن مجرّته وانتحر...

فالنورُ يأبَى البُزوغَ إلا من ابتسامتِه الضحكاء...

تدورُ الخيوطُ بين يَديه...

حرفةٌ بلمسَتِه الرقيق...

تلك الأصابعُ لا تحيكُ إلا الجمال...

فإنْ يصيبها ضربٌ من شلل...

فهذا أمرٌ من المُحال...

وسبحان الله يمتلئ الصدر فرحاً وترتسم الضحكة على الشفاه عندما يُذكَر أحمد المولود السابع، فهذا الشاب عاطفي بطبعه، رومانسي، يحمل حميمية لدفء الأسرة، يعشق مريم وكل مَنْ يعشق مريم لا بد أن نعشقه.

تراه وسيماً متألّقاً، جميل الهندام، يختار ملابسه بدقة ورقيّ وكأنّ الظاهر والباطن يتعانقان.

عاطفة دافئة وشخصية ملفتة، كانت الشفافية تبدو على محيّاه، يعشق الموسيقا، فينام الغيتار بين يديه حالماً، لمساته الفنيّة يلمحها كلّ فَطِن.

كم طالبَ أباه بأن يحترف مهنة الحلاقة ولو تمّ ذلك لَغَدَا معشوق الطبقة المخمليّة من القوم فهو يرسم بأنامله لوحات من الجمال لا مقصّاً يقضم شعراً، ولكن صعوبة عقول الآباء منعته من تحقيق أمله فاختار الأزياء حائكاً مبدعاً تدور الخيوط بين يديه كما تدور الأساور في ذراعي الفاتنات.

يكفيه تذوّقاً للفنّ والجمال أنّه يعشق مريم، أَلَيسَت آيةً ربانيّةً أبدعتها يدا الخالق؟

كثيراً ما يعانقها ويضمّها إلى صدره ويقبّل يديها وينحني على قدميها، فهو بارٌّ، عاطفيٌّ يحسن التعبير عن مشاعره بأداءٍ دافئٍ طاهرٍ حارٍّ.

وتخيّل معي حين يعشق هذا الفنّان امرأةً لا بدّ أن تكون ربّةً من ربّات الجمال من آلهة اليونان، وكانت ثمرة التقاء السمن بالعسل (سامي) طفلٌ تتبع الجاذبية من عينيه البنيتين ووجهه الأبيض وشعره السبل الذي يرصف بالشقرة في الشمس ولون العينين في الظلّ.

في ظلّ أمواج الرومانسيّة الدافئة، هبّت أمواجٌ عاليةٌ سوداء تدفعها ريحٌ عاصفٌ لا تبقي ولا تذر، لقد دمّرت الفتنة في سوريا بيوت الآمنين وسرقت الدفء من الصدور وبريق الفرح من العيون، ومما جرفته في هيجانها بيت أحمد ومتجره مما دفعه إلى أن يجمع بشتات ما بقي له ويغادر أرض البراكين.

فهذه الأرض الجميلة في ظلّ أعاصيرها تنفّر الطيور وتجذب الوحوش، واستقر في بيروت، والحزن لا يفارقه، فدفء الأسرة يراوده، وعناق مريم يعاتبه، ورائحة ياسمين دمشق يمزّق صدره، وكثيراً ما تراه يرمق ببصره جهة دمشق ولسان حاله يقول:

سلامٌ من صبا بردى أرقّ ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق

وتزداد الجراحات عمقاً في قلب العذراء، إنّ لمغادرة أحمد طعم أشدّ مرارةً فهو حبيب دافئ والبرد يحاصرها من كل مكان، فقذائف تحمل النار تترامى في السماء وجليد ترتعد له ذرّات القلب يهيمن على الروح والجسد.

جنى

عشقٌ مُلتَهِب

جنى . . . ثمرةُ الحبِّ الأخير . . .

جنى . . . جنةٌ بين ربوعِ الطبيعة . . .

تخاف عليها من أي نسمة عابرة . . .

فتوصيهم بها . . . قلوبكم لها . . .

وحرصكم عليها . . .

تبكي مريم عندما تُشاهدها تكبُرُ كلَّ يوم . . .

تُساورِها تساؤلات وشكوك . . .

هل ستمضي في دروبِ أخوانها . . .

وتتشربُ القسوةَ وأحكامَ القدر . . .

هل سيستعمرُ السوادُ في آمالها . . .

كم ترجو مريم وكم تتمنى . . .

أن تشرقَ الحياةُ في وجهِ جنى . . .

وأن تستقرَ الضحكةُ دوماً على ثغرها . . .

جنى . . . حبٌّ لأمٍّ بأفكارٍ متناقضة . . .

بها جسِ الخوفِ من الأيامِ القادمة . . .

ربما ستكسرُ قواعدَ الرواية...

وتغدو حياتَها بفعلِ طموحها...

نيراناً متأججةً من نجاحٍ باهر...

عاندي أقدارك جنى..

عانديها بأملٍ وامضي..

اصفرّت أوراق الشجر وبدأت تفقد رطوبتها ونداوتها.. دخلت قصتنا في خريفها، عصفورة الأمس بقيت وحيدةً مع ابنتيها بعد أن هاجر بقية السرب منهم ميمماً شرقاً ومنهم ميمماً غرباً، سيطر السكون على البيت فرفرفة الأجنحة قلّت... وحركة طائرين أخفّ جلبةً من حركة ثمانية... الكل بنى عشاً مستقلاً لنفسه وزوجه وفراخه وبقيت العذراء ترمقهم من بعيد بعينين دامعتين وكأنّها تلوح لهم بكلتا يديها... وزاد السكون ألماً أدوية وأمراض تدور في عرق الزنبق... ولم تعد الأجنحة التي تمسح على جبينها الناصع كثيرة فالجميع يظلل صغاره بأجنحته... إنها كروية الأرض... إنها سياسة الزمن... وطبيعة الوجود... وسرعان ما تقاوم وحدتها بلسانٍ رطبٍ يلهج لخالق السماء بالدعاء لأبنائها الذين كانوا السبب في ضعف عود الزنبق... واستكانته.

لقد رشفوا جميع رحيقه فلم يبق إلا قطرات تحاول الإبقاء عليها لتبقى رطبةً تفوح بعبق الزنابق...

مريم... تلك النسمة المثقلة بالهموم و تحمّل المسؤوليات المتراكمة و نسج الأفكار المتشابكة، حياتها انقسمت إلى قسمين:

الأول: انكسار وألم، نتيجة ضعف حميّة مراد الذي فتح ريحٌ عاصفةٌ من قبل أهله وأخوته الذين حاولوا مد سيطرتهم عليها وعلى أفلاذ أكبادها.

الثاني: هموم الأولاد المتراكمة والتي ما انتهت أبداً حتى حين كبروا.

إنّها مريم، سارت حافية القدمين بنعومتها الحريرية على أرضٍ مليئةٍ بالأشواك.

ولا يخفى ماذا يفعل الشوك بالحرير، درجت طفلةً أشبه بالملائكة تدور في بيت أهلها العربيّ بين أحواض الورد فتقترب بعد أن يجذبك عبير جبينها لتستنشق ماء الحياة وتلقي وراء ظهرك بالقرنفل والجوريّ والياسمين... معشوقة أبيها ملأت الدنيا عذوبةً وتغريداً وهاهي شابة أميرة، ربةً إغريقيّة اخترقت عشرات القرون لتنبعث بيننا مزيجاً من ياقوتٍ أحمرٍ ومسكٍ أبيض وعنبرٍ أخضر.

شفّافةٌ كزجاج صرح سليمان يتقاطر العطر من خصائلها والحياء من وجنتيها، تدوخ الحمرة على شفتيها تسبح الدموع في عينيها.

نهداتٍ حارةٍ تنبعث من صدرها لتعبر عنقها المرمريّ ثمّ تنبثق من ثغرٍ رسمه الرحمن بريشته.

كلّما داست قدمها على شوكٍ نبتت وردة، وكلّما خطت على رملٍ استحال عشباً يانعاً يفوح بعبق الصعتر البري.

لم تنل حظّها من الدنيا لأنّ حظّها لا تتسع له دنيانا الفانية، فهو عظيم كبير واسع نقي لا تحضنه إلا السماء وكذلك الأنبياء يُعذّبون ويتألّمون في الدنيا وتكون مكافأتهم عند ملك الملوك تليق بتضحياتهم وصبرهم وجهادهم، فمَثَلُها مثل سنبلةٍ أنبتت ثمان سنابل، في كلّ سنبلةٍ مئة حبّة.

فكلّ سجدة تسجدها سلمى... وكل تفكّر تلهمه ليلى... وكلّ تكبيرة تكبّرها زبيدة... وكلّ ركعة تركعها شفاء... وكلّ آية تتلوها بيسان... وكل تهليلة يهللها محمد... وكل تسبيحة يسبحها أحمد... وكل هداية تهتديها جنى... تتصبّ في كوثر حسناتها.

مـــريم نحن ممتنيـــن لك
مـــريم نحن نعشق عطرك
مـــريم نحن نستنشق عبقك
مـــريم نحن نســكن بدفئك
مـــريم ضمّينـا إلى صدرك

إنّها العـــذراء..... إنّها مـــريـــم

تُكتَب في الغلاف الخلفي ...

إذا نظرْتَ في عيون الأمّ تاه فكرك بشطآن رمشيها... وتقاطرت أمطارٌ مقطّرةٌ تذكّرك بعذوبة ماضٍ يئنُّ الناي عشقاً لملامسة جفنيها... فيفيض شوقاً لطفلٍ كان لا يغمض له جفنٌ إلّا على نهدَيها... ويدوخ طرباً لقطراتٍ تلامس شفتيه من كوثر الفردوس... ورائحةٍ حَمَلتْها نسماتٌ من عبق جنان الخلد... وساعِدَين تقلّباني كجدولَين من حريرٍ وكأنّني دميةٌ بين كفّيها...

كم أعشق تلك العينين.....

هدى علي محفوظ